DARK SUNRISE

جائزة كتوبيا للنشر

إنچي مطاوع

شروق معتم

ساحات الدم

فريق متميزون

E-BOOK

رواية

KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

شروق معتم

رواية..

الكاتبة: إنچي مطاوع

الكتابة..

متعةٌ وحياةٌ بقلب الحياة، رقيٌ وارتقاء،

نَجْمٌ يعلو سطح السماء الصافي فيثير البهجة،

فِرْدَوْسٌ أبَدِيٌّ ينتشلك من جحيم الأرض الأزلي،

هي حلم..

ملاذٌ نهرب إليه ليطوحنا بشوقٍ بعيدًا عن حياة العجز والقهر،

الكتابة..

عَرَّافٌ يكشف نِياط العتمة عن الواقع..

فشاركني ما كتبْتُ بقراءتك.

بعض أوجاع الواقع التي نتخلص منها بسرد نبضات آلامها.. هي كهيئة دفَقٍ من كلماتٍ مغموسةٍ بِوَجَعٍ يحتل أحشائنا، في أحلك الأوقات، نحتاج لحظةَ أمانٍ..

وإن كنا نَعْلَمُها مزيفةً زَيْف التاريخ!

في لحظات اليأس، نحتاج أنفاسًا تُحْيينا..

وإن كنا ننزف فداء إرواءه.

صدْرًا يلقمنا الحياة.. وإن كنا نُدْفَن تحت نعال تيجانه.

هكذا يكون احتضان الوطن؛ دافئٌ مُشبِعٌ لكنه يملؤك زمهريرًا وقسوةً برضوخ أهله للظلم، أهلٌ ينظُرون إحسان وُلاةٍ تجَبَّروا؛ لم يدركوا يومًا بأن الحَمَقَ كله بل قمة الحَمَقِ في تَوَدُّدِ عطْفِ المستبيح للعدل بظُلْمِهِ؛ فمِنَ الغباء انتظار اهتمام مَن تؤمن بأنك له قبرٌ.. تُهَلِّلُ كل يومٍ لِفَقْدِهِ معالم الطريق إليه!

إلا أن وجود الأمل يبقيك تحت سيادة مَن تتمنى طردَهُ خارج محيطك؛ تتحَيَّن لحظةً تقتصُّ بها ممن رفَعَ راية ظُلْمٍ وظلام، فكل ما يبقيك على الحياة، حماية وطَنٍ تَوَطَّنَكَ قبل أن تتوَطَّنَهُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البدايات

أحيانًا تكون ظروفك السيئة ميزةً عندما تتحول الحياة قليلًا كي تبتسم في وجهك، فبفضل كَوْني يتيمة الأب والأم استطعت السهر في كافيه وسط البلد لتجهيز قصتي دون اضطرارٍ إلى أخْذِ موافقاتٍ والتماس أعذارٍ أو التعلل بأن هذه ضريبة محاولة بناء مستقبلٍ مشرق، اليوم أصبحت ميزة عدم وجود من يسألني أينَ تذهبين؟ متى ستعودين؟ من معكِ؟ كيف تسافرين ليلًا؟

اعتدت وحدتي منذ توفيا قبل تهيئي لسنة التخرج من كلية آداب قسم إعلام في حادث سيارةٍ على الطريق الساحلي حيث كنا ذاهبين في رحلة صيف معتادة، لا أعلم لوالدتي عائلةً، فقط هناك خالة ما لا أذكر عنها أي شيء، انقطعت العلاقة منذ سنواتٍ طوالٍ بسبب الحياة ومشاغلها كما تقول أمي، ظهرت فجأة بعد وفاة والدَيَّ لأتعرف عليها وتعرض خدماتها هي وأبنائها، سيدة مجتمع من الطراز الأول، تبهر مَن يراها منذ أول لحظة، لكن باعدت الدنيا وخطوبها بيننا أو لم تسمح لنا بالتقابل منذ البداية بغير هذه المرة، كنت أحيانًا أفكر في اللجوء إليها لإيجاد عمل آخر على الأقل، ولكن كان يمنعني اعتيادي الاعتماد على ذاتي منذ سنوات، بالإضافة لخوفي أن يقلق ذلك روح أمي التي كانت تتجنب أي تعامل معها، اكتفيت بعلاقاتٍ سطحيةٍ جدًا على قدر ما استطعت وهي تكفلت بتحقيق ذلك فلم تسأل عني ولا مرة بعدها، لكن بين الحين والآخر كنت أرى أولادها في أحد شوارع القاهرة الكبيرة.

لدي أيضًا عم واحد يعمل كموظفٍ في مديرية الصحة بالإسكندرية، لم يعترض على بقائي بمفردي لاستكمال تعليمي بعد تشجيع من زوجته التي تُكِنُّ لي مَعَزَّةً خاصة؛ لا أدري سببًا لها غير شجارها معي ذات مرة؛ لأن والدي خالف شرع الله لأنه أمَّنَ مستقبلي ولم يكن لعمي وصايةٌ عليَّ لتجاوزي سن الواحدة والعشرين بشهور بسيطة؛ رحمتني كما أظن من مشاكل الوصاية وتبعاتها، كما أنها كانت تغار بشدة من والدتي؛ لأن والدي اعتاد معاملتها كملكة أمام الجميع، وعمي دائم الشجار معها بسبب سوء الحال.

وربما لأن عائلة والدي في الأساس من بلد البحر والحرية المرسومة الحدود، مما ساعد على موافقته، أو ربما خوفه أن يسوءني وجودي وسط ابنيه الشابين اليافعين بما يحد من حريتي كفتاة، خاصة وأن شقته مجرد ثلاث غرفٍ وصالةٍ صغيرة، وربما خاف عليهما من الافتتان بي! كيف لا يفعلان وأنا سمراء خفيفة الظل، أفضل ارتداء بناطيل من الجينز والتشيرتات الفضفاضة لتخفي امتلاء جسدي رغم إظهارها قِصَر قامتي..

لست سمينةً جدًا، مجرد طولي ١٦٠سم ووزني ٨٠ كجم ويمكنني التحكم وإنقاص هذه الكيلو جرامات الزائدة إذا رغبت ولكنني أحب شكلي هكذا، المهم أن أسلوب ملابسي هذا يُسهِّل حركتي خاصة مع «كوتشي» مريح لقدمي كي تتحمل كثرة التجوال طيلة اليوم على المكتبات، لتوزيع كتب الدار التي أعمل معها من قبل وفاة والدي.

وربما لكل هذه الأسباب لا يهم السبب المهم النتيجة وأنني أعيش كما يحلو لي دون أن أفعل ما يشين والديّ، كلما تذكرت يوم أخبرت والدي بقراري العمل وأنني وسَّطتُ صديقتي لدى أبيها مالك الدار،

وقتها لم يقبل بجملة «كي أعتمد على نفسي» كإجابةٍ منطقية، ثار وغضب وهدد بحبسي لاعتقاده أنني أنتقص من قدرته على إعالتي رغم أنه عاد مع والدتي من الكويت منذ سنوات بعد أن ادخر ما يؤمن حياتنا وكتب كل هذا باسمي، ثم لانت أعصابه وهدأت خلال ساعاتٍ قليلةٍ ببركة أمي الحبيبة وحديثها معه عن تركي لخوض غمار الحياة أمام أعينهم بدلًا من أن أعاني بعد ذلك فلا أخ أو أخت ليقفا سندًا لظهري ويحمياننني.

استغلت دلالها عليه ليوافق ويقف هو معي يحميني فيومًا قَرُبَ أو بَعُدَ سيتركانني وحدي وعليهما تأهيلي للاعتماد على نفسي، ربما يومها كانت تشعر بأنهما سيتوفيان بعد عامين، لا أعلم ولكنني سمعت أن الأموات يتلقون إشارات قبل وفاتهم بفترات كافية، أعتقد أنني أُصِبت بداء الثرثرة النسائية، نعود لمهمة اليوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعرفكم بنفسي، سهام شوكت، سأبدأ في كتابة أول قصة لي كصحفية في صفحة الأدب بجريدة «جريمة وعقاب»، سأملك كارنيهً رسميًا من جريدة معروفة بِاسمي، لتنتهي رحلة عذابي في التواصل مع الجرائد المختلفة داخل وخارج مصر لنشر قصصي، اتفقت معها على كتابة قصص قائمة على أحداث وقضايا حقيقية، توسط مدير دار النشر التي أعمل فيها مديرة توزيعٍ منذ أربع سنوات لدى رئيس تحرير الجريدة الأستاذ «وجدي الدمرداش» الصحفي الكبير ذائع الصيت والذي تصادف أنه سيطبع كتابه التالي لدى الدار بعدما جعله يقرأ إحدى قصصي ونالت إعجابه ولله الحمد.

يعلم مديري بمدى إعجابي بهذا الرجل لكثرة حديثي عنه وعن كتاباته وأعماله بحماسة أمامهم، وها هي الفرصة قد سنحت للاقتراب منه بالتأكيد إن صِرْت كاتبةً كبيرةً بمجهودي مِثْله سألفت انتباهه نحوي؛ لذا عليَّ القتال لأحقق ما أصبو إليه، أتتني فرصة ذهبية على طبقٍ ماسيٍّ رغم أنني لا أحب الوساطة في هذه الأمور، لكن أحيانًا عليّ الرضوخ لبعض منح الحياة حتى تسير السفينة في طريقها مع مراعاة عدم إضراري بغيري.

بعدما أنهيت عملي ذهبت إلى كافيه في سيتي ستارز وطلبت كابتشينو بالفانيليا وتشيز كيك فراولة، وبدأت في الانسجام مع قلمي وقصتي، اخترت كبدايةٍ قصة الجاسوس «عامر أرميلات»، جمعت المواد الأساسية لأستقي منها معلوماتي من الجرائد المعاصرة للقضية حينها مع بعض من التحريات حول المتهَمين فيها، تخيلت نفسي أعاصر القضية وأغامر كي أحضر الجلسات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شريفة

أغمضَتْ عينيها وهي تبتسم بثقة، أسندَتْ ظهرها على مقعدها لتريحه، وهي تتذكر شريط حياتها منذ البداية وكيف كان حالها منذ عدة أيام، كانت يومها تعيد حساباتها وتتذكر حياتها..

أُف، أوقفوا هذا الصوت المزعج، يا حراس اقتلوا المتسبب، يا حرااس..

يا الله السابعة صباحًا، لا زال الوقت باكرًا جدًا على الاستيقاظ، لم أعد تلك الموظفة الصغيرة المتلهفة على الاستيقاظ لتحقيق أحلامها، وكَنْزِ بضعة جنيهاتٍ على بعضها البعض لتكوين ثروةٍ خيالية، ها أنا قد حققت ثروتي الخاصة، وبنيت مكَانتي الاجتماعية بمجهودي الخاص، ذكائي وحنكتي أوصلاني لِما أنا فيه الآن ولا فضل لأحد غيري عليَّ.

يا الله منذ سنوات ليست بالبعيدة جدًا، كنت مجرد «شريفة الباز» خريجة متلهفة نحو الحياة، مجرد فتاة تطمح لما يفوق إمكانياتها، مجرد رقم من ضمن ملايين يعيشون أعلى خط الفقر بقليل، تُوُفِّيَ والدي وأنا صغيرةٌ جدًا، وانكفأت والدتي تربيني مع شقيقتي على ضرورة الرضا بما قسمة الله لنا من شظف العيش وحياة التقشف، لم يكن الأمر يعجبني ولكن عليَّ الرضوخ فلا مهرب، حتى حانت اللحظة التي اعتبرتها بداية تحقيق حلمي، بعدما توفت والدتي وأنا في الصف الثاني بالجامعة، بعد سفر شقيقتي مع زوجها إلى مكان عمله، بعدها اتفقت معها على بيع الشقة التي كنا نسكنها بالإضافة إلى شقة أخرى كنا نؤجرها ونتعيش بالقليل العائد من إيجارها، لنستفيد من ثمنها، فلم تمانع بعدما أخبرتها أنني سأشتري شقةً أخرى في مكانٍ أرقى، استطعت إقناعها بتنحية الذكريات والحنين وهذه الأشياء؛ فلدينا مستقبل يحتاج لرسمه وإعادة توصيفه، انتقلت إلى شقةٍ في الزمالك بعدما سجلتها بِاسمي، ويكفي أختي أن والدتي زوَّجَتها أما أنا فلا زال مستقبلي مبهما، صحيح غضِبَت حينها وانقطعت علاقتنا تقريبًا، لكنني يومًا سأصلح هذا الشرخ، ثم بدأْتُ رحلة المليون الأول، أيااام..

صرخ المنبه للمرة الثانية فأغلقته، تركْت سريري الوثيرِ وذهبت نحو شرفة الفيلا أستنشق نسيم الصباح، لقد خرجت من حلم جميل كنت فيه أميرةً مُتَوَّجَةً على عرشِ البلاد، آمُر فأُطاع، الأميرة «شريفة»، شردْتُ عائدةً إلى سنواتٍ مضت حيث كنت أستيقظ مسرعةً كي لا أتأخر، أذكر أنني ذات يوم استيقظت متأخرة.. ارتديت ملابسي سريعًا، طقمٌ كلاسيكيٌ وجاكت وجيب يتخطى الركبة بعشرة سنتيمترات، فمديري الحاج «سعيد» رجل رغم عينه الزائغة على أية أنثى وزواجه العرفي بأكثر من امرأة، إلا أنه محترمٌ جدًا في العمل لا يقبل بمغازلة موظفة لديه أو الدخول في أية علاقة لها صلة بعمله ومركزه الخاص، خاصةً مديرة مكتبه، لكن عليَّ المحاولة وبهذا الطقم سأبدو مثيرةً في هدوء، مشاغبةً بوقار.

وضعت بعض من الحُمرة والروج بلون برونزي، أريد أن أبدو مثل الشمس اليوم لا داع لأكون وردةً كما أغلب الأيام، تأكدت من جمال هيئتي في المرآة فقد درت أمامها ثلاث دورات ثم أخذت حقيبتي وهي كما الحذاء من ماركة هاي كواليتي.

من الضروري أن أبدو مختلفةً ومميزةً عن جميع من أعمل معهم، يمنحني هذا إحساسًا أكثر بالثقة، ويعلي قدري لدى زملائي ومديري، كما أن المظاهر مقياسٌ مهمٌ وسط مَن أتعامل معهم، أعلم أنني

أثير غيرة زوجة المدير وابنتها دون أن تَظهرا ذلك وتحاولان التفوق عليَّ معتقدتان أنني لا ألمح نظراتهما أو أفهم حديث عيونهما المتكبرة، إنهم محدثو نعمة؛ إذ جمع صاحب المركز أمواله من أعمال شتى والآن يحاولون مواكبة تلك الطبقة الغنية التي لا تشتهي شيئًا إلا وحصلَت عليه.

يعتقدون أن المال هو المحرك الأساسي لأي شيء، صحيحٌ أنه كذلك لكنه أيضًا يلزمه العقل المفكر والواعي ليزيد المال ويثبت أقدام صاحبه وسط هذه الطبقة المتعالية، وأنا أملك العقل والثقافة بكثرة قراءاتي وتنوعها وأملك التعليم العالي؛ فأنا خريجة «اقتصاد وعلوم سياسية»، أعتمد على حالي منذ بداية شبابي لأحقق كل ما أصبو إليه، وأحقق حلمي الأكبر في تحقيق ذاتي.

لا أدع فرصةً للحصول على تدريب في أي مجال أسمع عنه إلا وانتهزته، حصلت على شهادة مدربٍ محترفٍ في البرمجة اللغوية العصبية، وشهادًة في عِلْمِ الفَراسة وغيرها من أمور التنمية البشرية تلكَ بالإضافة إلى شهادات استخدام الحاسب الآلي في مَجالات عديدة، بالتأكيد سأحتاج كل هذا يومًا، أطور من نفسي دائمًا كي أحقق حلمي يومًا ما وأصير المرأة رقم واحد على مستوى العالم، فبالتأكيد سيأتي ذات مرة شخصٌ مهمٌ للمركز ويراني وأعجبه وينقلني إلى مستوى أتمناه, أعيش فيه مرتاحةً ويدعمني بماله كي أبدأ تنفيذ طموحاتي.

عِش لذاتك ثم ذاتك ثم ذاتك أيضًا لا غيرك، لا تدع مجالاً لغيرك للصعود معك، كَسِّر مجاديف الريح إذا ساعدت غيرك، فتُّت هِبات الدنيا إن نالها سواك، حارِب الآخرين، دمِّر ما لا ترغب فيه؛ ما ليس لك لن يكون لسواك!

نصيحة ضياع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أرميلات

كُلِّفْتُ بحضور جلسات قضيةٍ أثارت كل مَن سمع عنها، لذا طلبت أحد الفنادق دلني عليه أحد أصدقائي في القاهرة، أخبرني أنه يتميز برخص أسعار الغرف، ولكنه حذرني من تناول الغذاء هناك وإلا فلا ألوم إلا نفسي عند رؤية الفاتورة، حجزْتُ غرفةً ليومين على سبيل الاحتياط وبدأت رحلتي، سافرت الساعة العاشرة مساءً بالأتوبيس، كي أتمكن من حضور الجلسة صباحًا لأرى بعيني لحظة النطق بالحكم داخل قاعة محكمة العريش.

وصلْتُ في حدود الساعة الرابعة مساءً، فخلدْتُ للنوم كما القتيلة واستيقظْتُ في السابعة صباحًا، تأكدْتُ من أن الكاميرا تعمل لأستطيع التصوير وجهاز التسجيل يعمل، ثم تأكدْتُ من وجود ورق وأقلام في حقيبتي وتمَّمْتُ على حافظة نقودي، وكارنيه يثبت انتمائي للجريدة، ثم نزلْتُ إلى الدور الأول حيث موظف الاستقبال، طلبت منه مساعدتي في إيجاد وسيلة تُقِلُّني إلى محكمة العريش، فطلب سائقًا من معارفه ليظل معي طيلة اليوم كما أريد نظير مَبلغٍ اتفقنا عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما وصلنا أمام قاعة المحكمة، لم أتخيل كل هذا الزحام؛ حيث المئات من أبناء قبائل سيناء، كان الوضع داخل المحكمة أسوأ من الخارج؛ فالزحام أشد قسوة، وإجراءات الأمن أكثر صرامة، شعرتُ لوهلة أنني في خِضَمّ حربٍ دون أن أدري، فجريمة تجسُّسٍ كهذه حركت الرماد لتشتعل النيران وتصل إلى عنان السماء في وضح النهار، لتُظْهِرَ مدى بشاعة تلك الحرب الباردة بين البلدين، جذبَت القضية اهتمام الكثيرين لمتابعتها؛ خاصةً وأن الأرض حُرِّرَت وصارت تحت سيطرة مصرية كاملة، فكيف تجرأ وفعل ذلك؟ ولماذا؟!

وجوهٌ غاضبةٌ وأخرى متوترة، ووجوهٌ تبدو وكأنها خرجت من جوف القبر، اقتربْت من مجموعةٍ مكونةٍ من ثلاثة أفراد، وسألْتُ عن هذا الجاسوس كنت أسجل الأحاديث كي لا تضيع مني أية كلمة، من أهم ما حصلْتُ عليه أنه أميٌّ لا يجيد القراءة ولا الكتابة، سارقٌ متمرسٌ وتاجر مخدرات شهير، اقتربت الساعة من العاشرة فدخلْتُ إلى قاعة المحكمة لأتابع الجلسة من البداية.

تعرفْتُ على محاميه وعندما أخبرته بأنني صحفية مكلفة بكتابة تقرير صحفي عن القضية وأريد إجراء حوار معه، طلب أن أكتب على لسانه: «لولا أنه مجبر بنص القانون على الدفاع عنه لَمَا فعل ذلك وتركه لينال عقابه ويُشْنَق»، عندما سألته ماذا عن احتمال أن يكون بريئً والتهمة ملفقة؟ أخبرني أنه لا يملك شهودًا أو أدلةً تنقض الاتهامات فهو رجلٌ على باب الله والقانون يريد أدلةً لا كلامًا مُرْسَلا، طلبت منه أن أتحدث إلى الشهود فعرفني عليهم ثم تركني وعاد إلى كرسيه لانتظار حضور السادة القضاة.

وقفْتُ أمام القفص محاولةً التحدث مع «أرميلات» فابتعد إلى الجانب الآخر من القفص، هو شخصٌ متوسط الطول أسمر البشرة، يرتدي زيًا سيناويًا -جلباب وعليه جاكت كلاسيكي قديم ويغطي رأسه بطاقية تحيطها عمامة بيضاء- عينيه حادة النظرات كصقرْ ينتظر لحظة الانطلاق لِيَعُبَّ السماء عَبًّا، رغم جسده المترهل ربما من فزعه مما يحدث، ابتعدت عنه وبدأت أسأل الشهود عما شهدوا به وعن

علاقتهم بالمتهم وأخذتَ موافقتهم على تسجيل كل ما سيخبرونني به، جمعْتَ الحكايات ثم عُدْتَ إلى الفندق لأكتب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الثراء حلم أغلب الشباب، شمسٌ نلتمس دفئها ولكن أغلب الأحيان الطرق التي نسعى خلالها لنصل إليه تحرقنا بدلًا من أن تمُدَّ يد المساعدة، قد نرث وقد نفوز بجائزة يانصيب لنُكَوِّنَ ثروةً مفاجئةً، ولكن هذا يحدث في الأفلام والأحلام فقط؛ أما في الواقع فعلينا الحفر في الصخر لتكوين ثروة بطريقة شرعية، أو قد نلج إلى طرقٍ ملتويةٍ نحقق بها ما نصبو إليه.

«إسماعيل أبو حميد» رجلٌ أسمر البشرة والشعر، نحيف الجسد، طويل القامة بعيونٍ عسلية، وهو المتهم الأول في القضية، وقصته بدأت منذ الصغر، يصبو منذ نعومة أظافره نحو تكوين ثروةٍ تجعله كبيرًا وسط قبيلته، وسأدع له المايك ليتحدث، تخيلته يغمض عينيه وهو يستعيد ذكرياته..

كنت أريد تحقيق أحلامي سريعًا ولكن الظروف لم تساعدني أبدًا، بدأت العمل صغيرًا بعد فشلي في إنهاء الشهادة الإعدادية رغم حبي للقراءة، تركت الدراسة وذهبت لرعاية أغنام عمي في مقابل أجرٍ زهيد، كنت أذهب معه هو وزوجته دوريًا إلى السوق لبيع ما يصلح من الأغنام، وتجلس زوجته في منتصف السوق لبيع ما صنعته من جُبْنٍ قَرِيش، وهناك أقمت العديد من الصداقات.

كان أقربهم إلى قلبي صديقي «أرميلات» هو مثلي غير متعلِّم يسعى لتكوين ثروةٍ لا حصر لها أيًا كانت الوسيلة أو الطريقة، كنت أراه شيطانًا لا يتورع عن فعل أي شيءٍ لينال ما يريده، لكنه كان ذو حظٍّ عاثِرٍ لذا كان يلعب عن قدْرِ حظه وتفكيره، لقد بدأت صداقتي معه عندما اشتريت منه راديو صغير وعندما عدت إلى مضاربنا لم يعمل، في المرة التالية ذهبت إليه لأعيده ولكنه منحني بطاريات قال إنها تجعله يعمل، أخذتها بعد أن جعلني أدفع ثمنها.

اعتدت كل مرة أذهب إلى السوق التوجه إليه بعد الانتهاء من مهام عملي لأتفرج على ما لديه وقد أشتري منه أي شيء، صحيحٌ لم يكن يكرمني بتخفيض قرشٍ واحدٍ، ولكن كان له أسلوب يقنعك بالشراء وأن ما حصلْتَ عليه هديةً ستعرف قيمتها بعد ذلك لتدعو له، هو أكبر مني بنحو عشر سنوات، كانت الأجواء في سيناء هادئةً بعد انتهاء حرب أكتوبر والجميع يسعى لتحقيق مكاسبه الخاصة ولكن كيف والمكان كله مقفَرٌ وفقيرٌ من الخدمات ووسائل التربح؛ كان علينا محاربة المستحيل قبل الحكومة لنستطيع تخطي حالة الضنك الملمة بجميع القبائل.

عرفت فيما بعد أنه سارقٌ، وعندما واجهته بذلك قال: «وما الذي يعنيك في هذا؟! المهم أن تحصل على ما تريد بسعرٍ أقل بكثير من قيمته الفعلية، ثم أنني أسرق من سارقٍ كبيرٍ؛ والسرقة حلالٌ في هذه الحالة يا صديقي»، لا أنكر أن منطقه أعجبني؛ بعدما توطدت علاقتنا كنت أذهب معه أحيانًا لسرقة المستوطنات القريبة من الحدود، عندما كبرت قليلًا مللت من رحلات رعاية الأغنام وسط دروب الصحراء التي حفظتها عن ظهر قلب نظير مبالغ قليلة.

أما العمل مع «أرميلات» فكان عبارةُ عن مغامرةٍ صغيرةٍ للاستيلاء على ما خَفَّ حمْلُهُ وغلا ثمنه، نتيجتها مَبالِغَ أكبر وحياةً أكثر راحة، ظللنا لسنواتٍ نمارس السرقة حتى قبضت عليه القوات

الإسرائيلية مرة أثناء عودته بالمسروقات، شكرت الله أنني لم أصحبه ليلتها، بحثت عن عملٍ آخَر ولم أرتح في أيٍّ مما وجدت, فقررت أن أستثمر ما تبقى معي في إقامة كشك صغير كان يتجمع حوله الرجال في الغالب ليلًا لنسهر ونتسامر ولا مانع من أن أصنع الشاي وأبيعهم إياه مقابل مبالغ زهيدة.

خرج «أرميلات» بعد عدة أشهرٍ وعاد لممارسة نشاطه في السرقة ألح عليَّ كثيرًا لمصاحبته لكنني خشيت السجن ففضلت الاستمرار في بيع الشاي ومواد البقالة، واكتفينا بصداقتنا بالإضافة إلى توزيعي نسبة من المخدرات لحسابه، حاولت إقناعه بالاكتفاء بالمخدرات فربحها سريع لكنه رفض قائلًا: «البحر يحب الزيادة وأنا بحر لا يشبع»، سمعت بعدها أنه قد قُبِضَ عليه أثناء تهريبه «ثلاجة» من مستوطنة «باميت».

توقعت أن يُحْبَسَ لفترةٍ طويلةٍ ولكنه عاد بعد عدة أيام وكأنما فُتِحَت لنا السماء على مصراعيها، فقد زاد من الكمية التي احصل عليها من المخدرات كي أوزعها، عندما سألته كيف حصل على كل هذه الكمية لم يجب بأكثر من: «هو أكل ولا بحلقة»، واستمرت علاقتي به بعد ذلك على هذا النحو أنا مجرد «ديلر» وهو مَن يَمُدُّني بما أريد، شجعني كل هذا على طلب المزيد وانتهاز الفرص المتوالية، نتاجر في الممنوعات نعم لكننا لا نتجسس لكنهم لا يصدقوننا، سُمْعَتَهُ السيئة هي ما ساعدت على أن يلفق له الجميع تلك التهمه ليصمني بالعار معه، أخبريهم يا أستاذة أنني بريء، وأن كل هذه أكاذيب، هل تفعلين؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لندع الحكم على «إسماعيل» ولنذهب إلى المتهم الثاني؛ «قاعود سليمان»، هو شخصٌ قصير القامة، بدين الجسد، قمحي اللون وشعره أسود، عصبيٌّ لا يثبت في مكانٍ يتحرك يمنةً ويسرةً داخل القفص، عندما اقتربْتُ منه انطلق دون أي سؤال يخبرني بكل ما لديه، سأدعه يخبركم..

كل ما كنت أريده أن أُخرج شقيقتي إلى سيناء، فهي تعيش داخل الأراضي المحتلة ولم تتمكن من العبور والعودة إلينا بعد طلاقها، تعرفْتُ وقتها على «أرميلات» الذي كان يمدني بما يلزمني من مخدرات، قصصت له ذات ليلةٍ عن أختي ومشكلتها فعشَّمني بإمكانية إعادة أختي في أي وقت؛ بل ويمكنني الذهاب هناك بكل سهولة بمساعدته لإحضارها.

اذكر قوله: «أبو شريف يستطيع فعل المستحيل لنا، كما أنه سيمنحنا كميات كبيرة من المخدرات نوزعها لحسابنا الخاص، أي أنها استفادةٌ من جميع الجهات»، عندما وافقْتُ بعد تفكيرٍ؛ فهي فرصةٌ ذهبيةٌ لأرتاح من مشقة السفر على الطرقات حتى في أحلك الظروف الجوية، بعدها حاولت التحايل عليه وانتهاز الفرص لمعرفة سره، حتى أَقَرَّ في جلسة سُكْرٍ أنه يعمل مع الصهاينة في توزيع تلك المواد.

اختارني للعمل معه؛ لكوني سائقًا بما يسهل حركتي داخل سيناء ومعرفتي بكل منفذ فيها؛ ولظروفي التي حكيتها سابقًا، عملنا معًا لفترة حتى أخرجْتُ أختي ثم لم أستطع الخلاص من مساعدته بعد ذلك فلقد تورطْتُ في الأمر حتى أذني؛ لأنني لم أبلغ عنه، كان الأمر مغريًا بشدة، أموالٌ بلا طائل، نساء، مخدرات، وكل المطلوب نقل كمياتٍ محدَّدةٍ إلى أشخاص معينين والأجر مضاعف لأنني أعمل سائقًا

وموزعًا في الوقت ذاته، عندما اعترفتَ على ذلك الخبيث تشنج وقال إنني أفتري عليه لأنجو من الأمر.

توقفت عن الكتابة، استغرقت لبرهة في التفكير الموضوع مُحَيِّرٌ ومربك هل يصفي منافسيهم ثأرًا قديمًا بينهم بهذه الطريقة؟! كنت أختلس النظرات إلى الجميع ربما كشفْتُ حقيقة ما يخفونه داخل عقلهم عنا، لكن للأسف لست «سوبر وومن» لأفعل ذلك، لأريح عقلي وأخبركم عن الثالث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«عزت السبع» كان يفترض به أن يكون المتهم الثالث لكنه ألان شاهد ملك فنفذ من قدر بائس كان ينتظره

أثناء الجلسة السابقة كنت أتبادل معه النظرات بعدما أخبرني عنه أحد المحامين، رجلٌ ضخم الجثة، لا تظهر على وجهه أية انفعالاتٍ أو ردود أفعال، طلبت منه أن يخبرني عن طبيعة علاقته بالجاسوس، كان صوته أجَشّ وَتَّر أعصابي، وجعل دقات قلبي تنتفض فزعًا، سأخبركم قصته على لسانه

أعمل سائقًا وصديق منذ الطفولة لـ«أرميلات»، كنت أعلم أنه يتاجر في المخدرات، أحيانًا كنت أشتري منه للتعاطي الشخصي، حاول إقناعي بالعمل معه في التوزيع لكنني لم أوافق وخشيت أن أضع نفسي موضع شبهه وأنا «صاحب عيال».

عندما قُبِضَ عليه أول مرة بتهمة التجسس وحُبِسَ حينها عامًا ونصف، لم أصدق أنه جاسوسٌ وظننت أنها مجرد تصفية حساباتٍ بينه وبين زملائه تجار المخدرات الآخرين، خاصةً مع نشاطه في المخدرات المعروف أن مموليها يهود، بالإضافة إلى سوابقه في السرقة من داخل المستوطنات الإسرائيلية، كل هذا زاد من الشكوك حوله فَتَمَّ اتهامه بالتجسس.

بعدما خرج عاد لنشاطه في التجارة في المخدرات لم نكن متأكدين مَن ممولة، وهو كتومٌ لم يُرِح أي شخص بإجابة مهما كان قريبًا منه، لم يكن أيُّنا قريبًا منه ليخبره بأسراره، هو شخصٌ لا يعترف بوجود صديقٍ ولديه قناعةٌ بأن الكل سيخون عندما تواتيه الفرصة، بعد فترةٍ بدأ يتقرب مني ثانيةً وطلب مساعدتي في ترويج كمياتٍ من المخدرات خارج حدود العريش وسيناء، وافقت لزيادة الضغوط على كاهلي، بالإضافة إلى أنني هكذا أضمن الحصول على ما أريد لاستخدامي الشخصي مع ضمان ربحٍ معقولٍ يريحني من تعب السفر أيًا كانت ظروفي على طرقات سيناء.

بعد عام زادت نسبة أرباحي، وفي إحدى الليالي كنا نتبادل النكات والمزاح في جلسة مزاج، وبعد أن ذهب الجميع عرض عليَّ مشاركته في الأرباح وفي كل شيء، عندما استفسرت أكثر أخبرني أنه يعمل لصالح الموساد وهم من يمدونه بالمخدرات، عندما لاحظ اندهاشي، لقد كنت أول شخص فكر فيه، طلب أن أنضم إليه وسيغرقني بالذهب، صرخت فيه «سنُعْدَم إذا كشفونا»، لكنه طمأنني بأن مَن يعمل معهم سيخرجونه من البلاد إذا لوحظ انكشاف أمره، كما أنهم يدفعون ببذخٍ وهو يغطي آثاره جيدًا لن يشك فيه أي شخص.

قاطعته بأننا نخون بلادنا وأهالينا، فأخبرني بأن البلد لا تعترف بنا كأبناء لها وكأننا أبناء الزنا لذا حلال عليهم ما يفعله، حاول إقناعي ثانيةً وعندما لم أنطق، تركني على أن أفكر في الأمر والأفضل أن أوافق ليعم الخير على الجميع وهو واثق من موافقتي لأنني مِثْلُهُ عاشقٌ للمال والنساء والثروة.

ظللت طيلة الليل أفكر حتى توصلت إلى قرار، اكتشفت أنني أضعف مما كنت أتخيل، لم أستطع النوم خاصةً مع صورة حبل المشنقة التي ظلت عالقة أمام نظري منذ حادثتي «أرميلات»، في الصباح كنت قد عزمت أمري لن أستطيع الصمت لأني هكذا سأترك له فرصة ضمي لشبكته بأية طريقة فهو ثعبان لا يعدَمَ حيلة، ولن أستطيع الهروب منه.

في اليوم التالي توجهت إلى مديرية أمن سيناء بعد اتخاذ بعض إجراءات الحيطة فقد أكون مراقَبًا، أبلغتهم بالأمر فطلبوا مني مجاراته حتى يتم الإيقاع به متلبسًا ولا يفلت من قبضتهم كما حدث سابقًا، أخبَروني أنه يتجسس منذ عشرين عامًا دون خوف أو شعور بفداحة فعلته، أخبَروني ببعض الاحتياطات التي عليَّ تنفيذها لتأمين نفسي ثم توجهت إليه وأبلغته موافقتي.

بدأنا العمل في اليوم التالي حيث صحبني إلى الأماكن المطلوب مراقبتها وعلمني كيف أجمع الأخبار والمعلومات لأبلغه بها وهو يوصلها بطريقته إلى الموساد وهكذا أحكمت الخناق حوله حتى قُبِضَ عليه وهو في طريقه لتسليم ما حصل عليه من معلومات.

توقفت عن الكتابة وتذكرت لحظة تسجيل كل هذه الاعترافات حينها كنت أحاول النظر ناحية ذلك الشبح الصامت لكن بلا جدوى، فلا رد فِعْلٍ يصدر منه تجاهي سوى نظراتٍ غاضبةٍ حانقة..

ذهبْتُ ناحيته وحاولت التقرب منه مرةً ثانيةً لكنه ظل على رفضه محتفظًا بما داخله لنفسه فقط، مكتفيًا بتبادل نظراتٍ باردةٍ مع كل ما يحيط به، لا زال القضاة في حجرة المداولة، والجميع في حالة تأهب وترقب في انتظار مصير «أرميلات» ومَن ساعده، حالة من السخط والغضب كلها مُنْصَبَّةٌ تجاه «أرميلات» داخل القفص والذي يقف دون اهتمام يقضم أظافره، ينظر في جميع الاتجاهات مرتديًا ملابس السجن البيضاء، لقد تأجلت القضية لليوم التالي؛ لذا عدت لاستكمال كتابة ما سجلته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم الثاني توجهت إلى القفص مقتربةً من «أرميلات»، وقفت أمامه دون أن أتحدث لنصف ساعة، بعدها حاول إبعادي، وجه الشتائم نحوي، نعتني بأسوأ الصفات وبأنني عاهرةٌ أسعى للشهرة على حسابه، كنت أكتفي بالصمت، صرخ فيَّ، حاول ضربي ومنعته القضبان، كل هذا وأنا أقف في الزاوية المجاورة له أثيرة صمتي وتصميمي، بعد ساعة من وقفتي تلك، أطرق برأسه إلى الأرض وبدأ يتحدث، كنت أتمنى لو أزغرط فرحةً، لكن الموقف لا يحتمل.

كان صوته خفيضًا جدًا، شعرت بالصمم، ولكن لا سبيل لإظهار ذلك وإلا عاد إلى صمته، حركت جسدي بزاوية ومددت رأسي قريبًا منه لتلتصق أذني بقضبان القفص وأستطيع سماعه جيدًا، أدخلت يدي لأضع المُسجل في مدى قريبٍ من فمه وضغط على زر التسجيل، تجاهلت الضوضاء المحيطة وزدت من انتباهي، وانطلق هو يحكي كيفما تفتق له:

منذ صغري لا أجيد أي عمل، لم أحب التعليم، لكنني عشقت المال وجمعه، كنت أعلم أننا نتبع لمصر ولكنني منذ صغري تربيت وسط هؤلاء وعملت معهم وكانوا يجزلون العطاء، كنت خفيف اليد أستطيع الاستيلاء على ما خَفَّ وزنه وغلا ثمنه ثم بيعه لجيراني أو في السوق، بعد حرب ٧٣ ثم تحرير طابا لم يختلف الوضع كثيرًا، لم ألحظ أية إشارةٍ تثبت انتمائنا لكم، دومًا ما كنا ولا زلنا مهمَّشين وخارج دائرة اهتمامات الحكومة ومؤسساتها، لذا اعتمدت على عقلي وأفكاري، كنت أستطيع تحويل التراب إلى ذهب، تعودت السرقة من المناطق القريبة منا، قبضَت عليَّ القوات الإسرائيلية في العريش مرة قبل تحرير طابا، لم يكن الأمر سيئًا هناك..

صادقْتُ «تيلا» إحدى المجندات المكلفات بالحراسة، منها تعلمت اللغة العبرية واستطعت تجميع مبلغ محترم أثناء فترة سجني بتوفير بعض الأشياء التي يتهافت عليها زملائي السجناء عن طريقها، كانت تمدني بما أريد من مخدراتٍ أو مستلزماتٍ شخصيةٍ مقابل نسبةٍ معينة.

بعد خروجي بحثْتُ عنها وكنت أحصل على ما أريد بمساعدتها لأبيعه داخل سيناء، كانت فاتنة الجمال، قصيرة، بيضاء البشرة، ممتلئة الجسد، ذات شعرٍ أصفرٍ لامعٍ ناعم، رائحتها تنقلني من سواد حياتي إلى النعيم فهي تجيد ألاعيب النساء، كنا نتقابل مرتين شهريًا، وبعيدًا عنها عاودت نشاطي في السرقة فما تجلبه لي من مخدرات لم يكن يكفي مصاريفي، كنت ملك السرقة حتى قبضت علي القوات الإسرائيلية داخل مستوطنه «ياميت»، وحُجِزْتُ في بئر سبع وهناك قابلت «أبو شريف» لأول مرة، أعتبره كَنْزٌ فُتِحَ على مصراعيه لأجلي، عندما تقابلنا قال أن الشرطة أبلغته بوجود شخصٍ تتوافر فيه صفات خاصة أعجبته فقرر ضمه للعاملين معه، لم يحتج الكثير من الوقت ليغريني فقد قدم العرض مباشرة:

«عندي لك عرضٌ بما أنك مدانٌ بالسرقة، أمامك خياران، الأول أن توافق على عرضي وبالتالي أخرجك الآن، أو أن ترفض ويكون الخيار الثاني وتقضي فترة عقوبة طويلة؛ لسبق سجنك بنفس التهمه».

وافقت سريعًا على العرض الأول أيًا كان هو، فطمأنني أن الأمر هَيِّنٌ وبسيط، فقط عليَّ الحفاظ على اتصال دائم معه وأن نكون أصدقاء وأساعده عندما يحتاجني، وفي المقابل سأنال مكافآتٍ كبيرةٍ وهدايا لا أحلم بها، فتم الاتفاق بعد أن منحني مبلغًا كبيرًا كفاتح للشهية كما أسماه.

بعدها دربوني لمدة أسبوع في مركز الموساد في «بئر سبع» على مجموعة من الصور حفظت ما فيها من أسلحة، بحيث إذا رأيت أيًا منها خلال تِجوالي بالصحراء أو الجبال والأودية أبلغه بما رأيت تفصيليًا، أشكالها وأعدادها بالإضافة إلى أماكن تمركزها، عندما تأكدوا من استيعابي لكل ما قيل ولطبيعة مهمتي والتأكد من قدرتي على تنفيذها دون أن ألفت الانتباه نحوي، منحوني أسبوعًا أجازة أقضيها داخل إسرائيل مع فتاة كالقمر اختاروها لأجلي، قضيت الأسبوع وسط المواخير والملاهي الليلية وسريرها، قبل أن أعود شددوا علي للمرة الثانية أن لا أبلغ «تيلا» بما حدث معي لا هي ولا غيرها، ثم تركوني أعود إلى العريش لأبدأ تنفيذ مهامي..

مع كل إخبارية كنت أتلقي هدايا ومكافآت على شكل شحنات من المخدرات، كان الأمر مربحًا جدًا كما أنه يغطي على عملي معهم فمَن يتخيل أن تاجر مخدرات لا يهمه غير المال والمزاج يتجسس

على انتشار القوات المصرية داخل سيناء لصالح إسرائيل؟! كانت المخدرات غطاءً متقنًا حسبما أقنعني «أبو شريف»، كما ساعدوا «تيلا» على أن تأتي لزيارتي كيفما شاءت بعد أن وفروا لها غطاءً يخفي حقيقتها الإسرائيلية اليهودية.

أما عن وسيلة الاتصال فكانت بسيطةً جدًا، عليَّ أن أضع حَجَرًا في طريق أي سيارة تابعة لحرس الحدود أثناء الدوريات المختلفة ثم أطلب من ركابها نقلي إلى مكتب مخابرات بئر السبع، تعددت الأخبار وتعددت اللقاءات وبالتبعية زادت شحنات المخدرات مكافأة على نشاطي الذي نال إعجاب مكتب المخابرات، لذا كُلِّفْتُ بتكوين شبكة جاسوسية في العريش وشمال سيناء، وكانت تلك لحظة سقوطي التي لم أحسب لها حسابًا رغم سنوات عمري الطويل في هذا العمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة دوى صوت الحاجب صارخًا داخل القاعة: محكمة، ليتركني «أرميلات» ويعود إلى الانزواء بعيدًا عن العيون..

خرج رئيس المحكمة وزميلاه للجلوس على منصة القضاء، ليسود الصمت القاعة، انقبضت القلوب وخرست النظرات فهي لا ترى غير القاضي انتظارًا لما سيحكم به على «عامر سلمان أرميلات»، ودوى الانفجار حينما عَلا صوت القاضي ناطقًا بالحكم..

«بعد سماع المرافعة والاطلاع على الأوراق والمداولة حيث أن وقائع الدعوى والمستندات وما قدمته النيابة العامة من أدلةٍ وبراهين تثبت قيام المتهم بالتعاون مع جهاتٍ أجنبيةٍ والاتصال بجهاز مخابرات دولةٍ معادية بهدف الإضرار بمصالح الدولة العليا، لهذه الأسباب حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم «عامر سلمان أرميلات» بالأشغال الشاقة المؤبدة وغرامة قدرها عشرة آلاف جنيه، والحكم على المتهم الأول والثاني بالسجن عشرة سنوات، رُفِعَت الجلسة.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا انتهت قضية تخص أمن الدولة، انتهت قصة ولا زالت هناك قصص أخرى كثيرة في انتظاركم كي تقرأوا عنها.

كُنْ جبَّارًا في الأرض، قاسيًا، دنيء الأخلاق بلا ضعفٍ ظاهر، كن ذا قلبٍ خَشِن الحس، صلب الإحساس، قاهرًا مزدريًا لكل مَن قلّ شأنه عنك، اِقهر المساكين والفقراء.

نصيحة ضياع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مستقبل مشرق -شريفة-

لكل مِنَّا نصيبٌ مِن اسمه؛ لذا قررْتُ أن أكون الشريفة عالية المقام، رَبُّ عملي رجلٌ ضخم الجثة، عريض المنكبين، أصلعٌ ولكنه وسيمٌ جدًا، طيب القلب أحيانًا وأحيانًا أخرى قاسٍ وعنيد، يملك من الذكاء والخبرة في التعامل ما يكفي لإدارة البنك الدولي، يمتلك إضافة إلى مركز تدريب الحاسب الآلي وإدارة الأعمال، مكتبًا آخَرَ يتبع المركز يقدم الاستشارات القانونية والفنية والإدارية تديره زوجته الحاجة «أحلام» وهي خريجة كلية التجارة وأكملت دراساتها العليا في مواد القانون لتكون محاسبًا قانونيًا متميزًا، ومع هذا كانت مكتفيةً بالعمل في المركز منذ بدايته ثم استقلت بمكتب الاستشارات بعد ذلك، وهي مديرةٌ قويةٌ تتحكم في كل صغيرة وكبيرة في المكتب، تعاقب بِيَدٍ مِن حديدٍ ونار، لكن في المناسبات تجزل العطاء وتمنح موظفي المكتب عدة أيام من الراتب مكافأة، وأحيانًا هدايا عينية في الأعياد الدينية، كانت قدوتي منذ تعرفت عليها وبدأْتُ أُجَوِّدُ من قدراتي الشخصية لأعلو عنها.

حياتي تعتبر سلسلةً بسيطةً تسير وفق مخططاتي، عملي مع هذا الرجل يعتبر أكبر مؤثر في حياتي، وأكثر ما ألهمني أثناء سعيي للوصول إلى حلمي الأكبر، هو رجلٌ عصاميٌّ، بدأ من الصفر حتى وصل إلى مكانته الحالية، أرقه الوحيد وهاجس حياته أن يضيع ولده الوحيد كل ما صنعه باستهتاره وتركيزه على ملذاته والاستمتاع بحياته فقط، فهو يمتلك أيضًا مكتبًا لتأجير شققٍ مفروشةٍ يديره أخوه الحاج «حسان» ويساعده أولاده «السيد، أحمد، أسامة»، ومكتبًا آخَرَ لبيع الأراضي والعقارات -وحسبما فهمت- يُدِرُّ عليه مكاسب رهيبة لأن سوق العقارات دائمًا في صعود حتى وإن هبط فهو يكتفي بالشراء حينها ويترك الأرض أو العقار لفترة حتى يرتفع سعره ثم يبيعه وهذا يديره أخوه الثاني الحاج «جلال» ويساعده أبناؤه «حسن، حسناء» أما أختها «حنين» فهي تعمل معي في مركز التدريب سكرتيرة..

لكنني أقوم بكل العمل وهي مجرد ديكور، وراتبها أعلى مني بمراحل هي وكل أقربائه العاملين معنا في شركاته ومكاتبه فقط لأنهم أقرباء الحاج «سعيد» صاحب كل هذه الأموال ولا سبيل للاعتراض فيكفينا أنه وظفنا بدلًا من الجلوس على الكافيهات والمقاهي، إذا تجرأ شخص واعترض بسرعة يجيبه «الباب يفوت جمل، امش وأنا بكرة أجيب عشرة من على القهوة بربع مرتبك هيوافق بمائة وخمسين جنيها فقط».

لا أعرف مَن قال له أن هناك من يقبل العمل بمائة وخمسين جنيهًا حتى وإن قَبِلَ كيف سيتحمل للنهاية لم يكن هكذا عندما وظفني منذ عشر سنوات، المهم أنني تعلمت اللعبة منه وصرت أعمل في أكثر من وظيفةٍ بطريقةٍ غير رسميةٍ وأستغل أوقات الفراغ، وأجمع كل ما أدخره لأشتري ما يتيسر لي من أراضٍ لأبيعها مستقبلًا، يومًا ستكون لديَّ إمبراطوريةٌ كبيرةٌ مثل التي يطمح إلى تكوينها وقد أنافسه وأطيح به هو ومنشأته، فكما تقول الأمثال الشعبية «إن كان هو ضَبًّا فَإِنِّي حِسْلُه» أملك من العلم والحنكة والكاريزما ما يفوقه ويتجاوز حدود تخيلة، لدي قبول يأسر الجميع.

يعيب الحاج أنه «ودني» يسمع لكل مَن هَبَّ ودَبَّ ولوشايات الجميع ضد الجميع، ومنذ وظف الأستاذ «سامي» نائبًا له، والأستاذ «محمد» رئيسًا للشئون القانونية، والأستاذ «سعد» مديرًا للحسابات

واختلفت الأمور كليَّة في المركز؛ فالمرتب لا يزيد إلا مع الحكومة إذا زادت مرتبات موظفيها زدنا نحن حسب النسبة المقررة بالضبط فان زادوا جنيهين يزيدنا جنيهين وإن زادوا خمسين فنحن كذلك..

مهما قدمنا من شكاوى أو حاولنا التحدث أو مناقشته لإقناعه أننا في مكان خاص عبء العمل فيه أكثر من العمل في الحكومة، وأن المركز يعمل بنا ودخله يأتي من مجهودنا نحن لا يقتنع بل قد يخصم أحد الميزات الخاصة بالأعياد متحججًا بعدم توافر المال الكافي لمنحنا أية حوافز عقابًا على تطاولنا، علينا التحمل والصبر فسوق العمل مغلق على من فيه، على العموم زملائي كفيلون بالأمر فهم يصلون كما يقولون ليدعوا عليه وعلى من شجعه وجعله يتجبر علينا هكذا.

كنت سأنسى، يمتلك أيضًا حضانةً خاصةً تديرها أخته الحاجة «سميرة» التي عينت معها أولادها الأربع «سمير، سميح» في الحسابات و«سمر، سهير» معلماتٌ مع أن الأربعة حاصلين على دبلوم فني تجاري، لكن لا يهم فَهُم أولاد أخت الحاج «سعيد» وللعلم زوجها يتاجر في السيارات المستعملة لحساب الحاج «سعيد».

كما ترون معي هو يهتم بإخوته ويجعلهم مسئولين عن كافة أعماله لا يأتمن غيرهم، خاصةً مع نفض ولده يديه من كل هذه الأمور وبغضه للمسئولية، إن بحثت عن الحقيقة هو لا يأتمنهم هم أيضًا؛ ولكنه مجبر؛ فسواء عملوا معه أو مع غيره سيعطيهم مرتبات تكفيهم شر الحاجة لغيره فيشوشرون على سمعته، ليس حبًا فيهم أو خوفًا عليهم لكنه لا يريد مَن يعايره بأحد أخوته، لذا اشترى لكل منهم شقة خاصةً في مكان راقٍ، ووافق على أن يتدرب في المركز دون رسوم أولاد إخوته «أسامة» بن الحاج «حسان» و«سميح» و«سمر» أبناء أخته فلقد ضاقوا ذَرْعًا بعملهم مع ذويهم ويريدون الانضمام إلى المركز للتدريب..

كنت أعتقد أنهما لا يستطيعان إكمال دراسة كل المواد فنحن ندرس مواد تشبه مواد الكلية مع شهادةٍ معتَمَدَةٍ من جامعةٍ خاصةٍ في رومانيا، ولكن اكتشفت أنهم قد اتفقوا مع أعضاء التدريب من أعضاء هيئة التدريس بالمركز أن يساعدوهم على النجاح في مقابل نيل رضا الحاج «سعيد» وبالتالي الحصول على بركات منحه ومكافأته، ليتساوى في النهاية مَن حصل على دبلوم بِشِقِّ الأنفس مع مَن حصل على البكالوريوس وتحمل تعنت أعضاء هيئات التدريس الحكومية، لنا اللهُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«شريفة أنجزي هذا سريعًا»، «شريفة أحضري هذه الملفات وتصرفي فيما هو مطلوب»، «ستحضر خلال ساعات لجنة لمراجعة كل ما في المكان أخبري زملاءك لا نريد أية مشاكل مع هؤلاء القوم؛ فغضبهم مكلِّفٌ جدًا وقد يفقدنا رخصتنا» ...

دومًا ما كنت مميزة في حياتي حتى في العمل كنت من ضمن الموظفين القلائل المميزين، نحصل على مكافآتٍ شبه شهريةٍ عشرة أيام لا يحصل عليها الباقون وإذا تذمرت لأي سبب قد يضيفني إلى القائمة المعاقبة ولا أريد هذا، تعلمت استغلال أي شيء لأصل إلى إرضاء مديري، ما أحصل عليه من خارج العمل له وظيفته في حياتي..

أما المرتب فبالكاد يكفي احتياجاتي الشخصية وهذه المكافآت هي ما تمثل انتعاشة اقتصادية فأشتري ما يلزمني من إكسسوارات وملابس وماكياج والقيام برحلاتٍ مجنونةٍ مرتفعة التكاليف أو كما الشتاء الماضي حيث ذهبت لطبيبةٍ مختصَّةٍ بالتجميل، وباستخدام الليزر صرت أوفر نقود المكياج لبند آخر وهو التنزه وشراء الكتب لأثري عقلي أكثر فأصل لما أريد أسرع، نحن في زمنٍ يحتاج لكل الإمكانيات لتحقيق الحلم شكلًا ومظهرًا ومعهما عقلًا وجوهرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-سهام-

«أوه يا لذكائك يا سهام، بديع!!» شجعت نفسي بتلك الكلمات فور انتهائي من كتابة قصتي، كانت الساعة التاسعة مساءً، ظللت أعدل وأنقح فيها وكأنما أعيد كتابتها من جديد لتمر الساعات في لمحة بصر وأجد الساعة الثانية عشر ليلًا؛ فجمعْتُ أوراقي واللاب توب وانطلقْتُ إلى شقتي، لديَّ يومٌ مثيرٌ بالغد، مَرَّت الليلة بسلام، استيقظْتُ في التاسعة صباحًا جهزْتُ نفسي للقاء رئيس التحرير وطبعْتُ القصة، ثم انطلقت لتحقيق هدفي.

أمام العمارة صرخْتُ فرِحَةً «حبيبتي.. حبيبتي» فأخيرًا أنهى الأسطى «علي» إصلاح سيارتي فيات ١٢٨ للمرة الألف، المهم أنه أصلحها وترك المفاتيح مع صاحب كُشْكٍ للفواكه مقابل لعمارتي مساءً كما أخبرني، لا أعرف كيف لم ألمحها ليلًا؟! سأعرفكم علي عم «صلاح الفكهاني»

هو رجلٌ جميل الأخلاق جدًا، أعشق الجلوس معه أحيانًا لسماع حكاياته، وحيد فقير الحال، يقول إنه حضر من الصعيد منذ زمن بعيد لا يذكره، عَمِلَ عامل بِناءٍ لفترةٍ كبيرةٍ وتزوج من إحدى زميلاته ولم يوافق على عودتها للعمل ثانية، حتى سقط أثناء عمله في ترميم عمارةٍ قديمةٍ وأقعدته إصابة عموده الفقري عن العمل لفترة كبيرة ضيع فيها كل ما ادخره وما حصل عليه كتعويض.

ثم توفيت زوجته بعد هذا بعام، لم يتزوج بعدها ولم يهتم بإنجاب الأطفال فكيف يعيلهم وهو لا يستطيع إعالة نفسه، فعائد عمله من تنظيف السيارات وحراستها في أحد الجراجات العمومية لم يكن يكفيه، خاصة وأن أغلب الوقت إصابة ظهره تقعده عن العمل حتى جهز له أحد كبار تجار الفواكه في المنطقة هذا الكشك بعد أن نقل إليه خبر إنجاب زوجته للولد بعد ست بنات، وأيضا ليعيل نفسه بعيدًا عن المعونات المتقطعة ممن يعرفه، يستغله ليلًا للمبيت أيضا ليصبح كل حياته.

ساعدته في بعض الأمور والتي من باب المصادفة استطعت إنجازها له، لكنه الله ومشيئته عندما يسخر لنا أمور لا نتوقعها لمساعدة أشخاص لم نكن نتوقع الاقتراب حتى منهم، فمن ضمن نعم الله علي أن كل مَن أتعامل معه يتحول إلى صديق وأخ خدوم في دقائق، قُدْتُ سيارتي الحبيبة إلى الدار فوجدت في استقبالي «مي» السكرتيرة بأربع كراتين صغيرة مكتوب على كل كرتونه اسم المكتبة التي عليَّ أخْذَ الكتب إليها، سألتها، «ألا يندرج هذا العمل تحت بند مسئولي الشحن لِمَ مُسَمَّايَ الوظيفي مسئول توزيع، وجَلَّ ما أفعله بعض مكالمات للمكتبات وعندما يتم الاتفاق آخذ الكتب بنفسي إليهم، عليَّ البحث عن دارٍ جديدةٍ الوظائف فيها محددة المهام ولا يتعدى مسمى وظيفي على آخر»، لم تتفوه بحرف فتركتها وانصرفت خاصة وأنها اعتادت سماع شكواي هذه دون تقديم ردٍّ مقْنِعٍ أو إجابةٍ تفسر هذا الخلط..

لا تملك ردًّا غير «لديكِ إرثك الخاص افتتحي مشروع باسمك وسآتي لمساعدتك براتبٍ مُجْزٍ» مع ابتسامةٍ عريضةٍ تبدو بريئة، فكرت في هذه الفكرة لكنني أخشى أن أضيع أموال والدي رحمة الله عليه؛ وأضطر للعمل بجديةٍ مضطرةً نتيجة إفلاسي على الأقل هنا لدي فرصة للغياب تحت أي ذريعة لأرتاح قليلًا وأتنفس الحياة عبر كتاباتي، ثم أن هذا العمل ليس سيئًا كليًا، لديَّ مديرٌ متفتحٌ متفهم، ربما على الصبر فهذه وسيلة لتعريف مديري المكتبات بنفسي، فَلِمَ أثير الزوابع؟

أنهيت توزيع الكتب ما بين مصر الجديدة ووسط البلد، أخيرًا أنهيت التوزيع، كانت الساعة الخامسة مساءً عدت إلى وسط البلد، عليَّ منح نفسي جائزة بعد كل هذا التعب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توجهت بعدها إلى الجريدة، أخبرت سكرتيرة رئيس التحرير أن لديَّ موعدًا مع سيادته، فطلبته لتتأكد ثم أخبرتني أنه في راحةٍ لمدة خمس دقائق من اجتماع مع رؤساء الأقسام؛ لذا عليَّ الانتهاء مما أريد سريعًا، دخلت أحمل نسخة القصة أقدم قدمًا وأؤخر أخرى حتى طرقْتُ باب مكتبه وقلبي يرتعش كما لو كنت ذاهبةً للإبلاغ عن أنني جاسوسةٌ قررَت التوبة، دلفت إلى الداخل وكانت المأساة في بقاء رؤساء الأقسام معه، مددت يدي المرتعشة بالملف فأخذه في صمت وأثنى على اهتمامي بالعمل، قائلًا: «يبدو أنكِ انهمكتِ في كتابتها دون نَيْلِ قِسْطٍ من الراحة؟!»

شعرتُ بدهشةٍ عارمةٍ وتساءلتُ بيني وبين نفسي: «هل شعري منكوش وملابسي رَثَّة إلى هذا الحد الفاضح؟» لم أجرؤ على النظر إلى نفسي، اكتفيتُ برفع كتفي مع ابتسامة خفيفة، ثم استأذنتُ في الانصراف.

همسْتُ لنفسي: هل هناك راحة قبل الاطمئنان بأن قصتي قد نالت الاستحسان وسيتم نشرها؟!! وأنها أعجبتك أنت كثيرًا أستاذ «وجدي»، على التمشية قليلًا لأهدئ أعصابي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتصل مدير الدار بعد أربعة أيام ليبلغني نشر القصة وسعادة أستاذ «وجدي» بصداها، وطلبه أن أستمر في الكتابة وتطوير أسلوبي، وعلى سبيل الحفاوة الزائدة وتقديرًا لِمَا بذلته من جُهْدٍ يثبت جدارتي بالعمل في الجريدة، سيتم التعاقد معي على تجهيز قصص يتم نشرها بصفةٍ أسبوعية، لم أتوقع حدوث ذلك سريعًا؛ خاصة أن الأمر يتيح التقليب في الدفاتر القديمة في أرشيف الحوادث، دون تحجيمي بتقصي تحقيقات أو حوادث جديدة فقط، تحدٍ كبيرٍ لصحفيةٍ شابةٍ مِثْلي لم تكمل عامها الثالث والعشرين.

طلب مني رئيس التحرير البدء في تجهيز قصة الأسبوع القادم وعدم الإهمال، إذن على تجهيز قضية جديدة قوية مثل القضية السابقة بل أقوى، لأحافظ على ما وصلت إليه، لذا يبدو أن عليَّ اللجوء لمعارفي واستغلال الواسطة في جَلْبِ ملفات قضايا جديدةٍ من أرشيف المحكمة أو النيابة، أعرف مَن سيخدمني في هذا الأمر.

ذهبت في اليوم التالي لابن عمي، سكرتيرٌ في هيئة أمن الدولة العليا، فكثيرًا ما ساعدني ووقف إلى جواري في وجه والدته ولسانها السليط، بعد السلام وبعض من المجاملات والفخر بشخصه وبسمعته ومركزه في عمله، والثناء على قوة إرادته حيث ترك الإسكندرية وجاء للعمل في القاهرة بهذه الوظيفة الصعبة، قدمت بعض الاعتذارات عن تقصيري في حق زيارته هو وزوجته وولديه الصغيرين، جميل ًأن يكون لديك قريبٌ متفهمٌ على عكس السيدة المصون والدته، أَنْهَى الأمر بأن أعلن معرفته بوضعي وظروف عملي ومشاغل الحياة فهو يعاني مثلها، ثم انهال عليَّ بالضربة القاضية وسألني:

«سمعتَ من أبي أن قصصك تَنْشَرُ في صحيفةٍ كبيرة، لذا ذهبت واشتريتها وقرأتها بالأمس، بالتأكيد لزيارتكِ علاقة بعملك الجديد؟!»

لا داعي للمراوغة مع شخصٍ ذكي، فأخبرْتُهُ أنني أحتاج إلى قضايا كبيرة ومهمة تثير ضجةً حال نشرها، والأهم أن تكون ذات صلةٍ بأمن الدولة وسلامتها لأكتبها على هيئة قصة، طلبت بعدها مجموعةً من ملفات قضايا تخص أمن الدولة، أنهيت طلبي مشفوعًا ببعض التوسلات والاستجداء بعيون كل محبيه، وافق على مَضَضٍ أن يحضر صورًا من ملفات بعض القضايا لكن دون ذِكْرٍ لاسمه أو أي إشارةٍ تدل على مَن جلبت منه هذه الملفات، فوافقت بعد أن وعدني بإحضار المطلوبِ إلى منزلي بعد غد، هو رجل المهام الصعبة في حياتي.

أمضيت بقية اليوم واليوم التالي في توزيع كتب الدار وتعويض الأيام التي قضيتها في إجازتي السابقة، لا أريد إثارة غضب مدير الدار، يومًا سينشر كتبي ويكون لدي متابعين وقراء مثل هؤلاء الكُتَّاب المنشورة صورهم على أغلفة كتبهم الورقية.

التزم ابن عمي العزيز بوعده وحضر إلى شقتي جلس معي قليلًا، ثم سلمني مظروفًا مغلقًا بعد أن أخذ وعدًا بعدم ذِكْرِ اسمه كمصدر، وجدت داخله مجموعة ملفات، عندما سألته هل هذه القضايا لا زالت متداولة؟! أجابَ بثقة وهدوء تعجبني فيه؛ اقرأي وستعرفين؟! شكرته متمنيةً أن تنال هذه القضايا استحسان ذائقتي الصحفية والأدبية.

بعدما انصرف جهزت كوبًا من القهوة ومجموعة أوراق بيضاء وبدأت تسجيل المعلومات وبيانات القضية، قصتي التالية، «استر يا الله».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملف الأول كان يخص الجاسوس «عزام عزام»، قلبت فيه قليلًا ثم نحيته فالجميع يعلم مَن هو «عزام» الجاسوس الإسرائيلي وكيف دخل البلاد متسترًا بإقامة مصنع نسيج، يا الله البداية غير مبشره، فطلبته غاضبةً وعاتبته لأنه غش في الملفات وأحضر قضية عادية لا يوجد طفل في البلد لا يعرفها، وقصة الإسكندراني معروفة.

ضحك قائلا ستعجبك قضية «سمير» فيها معلومات لا يعرفها الجميع، ثم لا داعي للغضب، وعد مني سأحاول إحضار مجموعه أخرى من صور القضايا لتعويضك وسأكرمك المرة القادمة وأقبل منكِ دعوة على الغذاء في مطعم حمزة على حسابك فأنتِ الثرية بيننا، بالتأكيد وافقت فهذه أقل ترضية لِمَا يفعله معي ولمساندته لي على الدوام دون مقابل.

بعدما سمع موافقتي، استغل الفرصة ودعاني لقضاء أسبوع معهم في الإسكندرية آخر الشهر في شقته بعيدًا عن والدته على أن يحاول إصلاح الأمور بيننا، لم أجزم بِرَدٍّ ولكنني وعدته بالتفكير فلا زلت في مرحلة تثبيت أقدامي في الجريدة ولا يجب أن أستهين بأي شيء أو أتهاون كي لا أستيقظ وأنا خارج أبوابها أولول وأندب حظي غير مأسوفٍ عليَّ، أنهيت الاتصال وسحبت الملف الثاني..

كُن مغرورًا.. صلفًا.. متباهيًا بما تملكه بحكم المولد لا بكَسبِ يدك، تألَّه حتى إذا أردت! كن الرسول أو المسيح في الظاهر، وفي الخفاء كُن حيَّةً وتصرف بكل وضاعة، أو شيطانًا وُلِد من ظهر إبليس

ساعة لذة.

نصيحة ضياع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-عصام الشناوي-

جنوب سيناء منطقة مهمة للغاية سياحيًا وسياسيًا أيضًا، فهي نقطة مغرية جدًا لتجار السلاح والمخدرات وأيضا لتهريب أي شيءٍ آخَر مهما كان، يتم هذا عبر منفذ طابا في الغالب، ولا مانع من استخدام الدروب الممتلئة بها صحراء سيناء..

صحراء التيه الأكبر، أغلب هؤلاء المحاولون لاختراق الحدود للعبور إلى إسرائيل هم من الضباط والجنود ممن لا يحملون جوازات سفر، أو مِنَ الجواسيس وتجار السوق السوداء أو من تجار المخدرات، وأحيانا مُزَوِّري عملة يرون الحياة بِلَوْنٍ ورديٍّ على الجانب الآخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بداية القضية بلاغ من مدير فندق «ميروزا» في محافظة جنوب سيناء، باختفاء فوج مكون من ستة عشر سائحًا صينيا، حيث توجهوا بالأمس إلى مدينه رفح للقيام برحلة سفاري بين الجبال والدروب هناك على أن يعودوا صباح اليوم في العاشرة، وها هي الآن الخامسة مساءً ولا أثر يدل عليهم، الأسوأ كان رفضهم اصطحاب دليل يتبع الفندق معهم معتمدين على روح المغامرة، مما يزيد القلق لاحتمال تعرضهم لخطر ما.

تم إرسال دورية بحث ولكن لم تصل إلى أي شيء بخصوصهم، كل ما اكتشفوه أنهم اختفوا عند الحدود المصرية الإسرائيلية، مع إشاعات أنهم دخلوا إلى إسرائيل عبر دروب وجبال مدينه رفح بمساعدة أحد سكان المدينة من البدو.

تم التعامل مع الأمر على أنها حالة اختطاف من الجانب الإسرائيلي لتجاوز هؤلاء السياح للحد المسموح دون قصد منهم، وبدأ التحقيق مع الجميع، فكيف يخرج فوج سياحي دون دليل يرشده عبر الدروب والجبال؟!

شمل التحقيق شركة السياحة المسئولة عن الفوج، فكيف يتهاونون في تنظيم وتأمين انتقالاته داخل البلاد؟! الغريب أن الجميع ألقى عن عاتقه الاتهام ليستقر على كتفي مديرة العلاقات العامة!! تم استدعاؤها للتحقيق في اتهامها بتهريب الصينيين الستة عشر إلى إسرائيل مع الأمر بجمع التحريات عنها، لمعرفة مدى تورطها في الأمر ومدى جدية هذا الاتهام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«نجلاء إبراهيم».. عندما وجِهت بالاتهام ظلت تنفي صلتها بشدة، ثم بعد الإيحاء إليها بإمكانية تعرضها للعنف كي تدلي بالحقيقة لم تصمد غير دقائق خاصة عندما أخبرها وكيل النيابة أنها المتهمة الوحيدة وأقر عليها الجميع، اتهمت زميلها في العمل «خالد مسعد» بأنه هو المتهم الفعلي لأنه كان يمر بضائقة مالية وأنها لم تعلم إلا بعد أن نفذ جريمته وخشيت الإبلاغ كي لا يسحبها معه في القضية.

أُلْقِيَ القبض على «خالد مسعد» الذي وَشَى بزميلته نجلاء، مُقِرًا أنها هي الأساس وهي مَن دبرت الأمر برمته فهو مجرد مساعد لها، وعندما تم مواجهتهما ببعض انطلق كل منهما يلقي التهمه على زميلة محاولًا التملص من الأمر..

في النهاية اعترفا أنهما شركاء في القضية، بعد أن هددهما وكيل النيابة بأيام وليال سوداء كما الخروب، أَقَرَّا أن علاقتهما ممتدة منذ أن كانا لاعبين لكرة اليد في نادي الزمالك، ثم عملا معًا في شركة السياحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انهارت نجلاء مُقِرَّةً بكل ما لديها، قالت إنها كانت تحتاج للكثير من الأموال لتمارس حياة الرفاهية التي تعشقها وجذبت معها زميلها لنفس الأسباب، ثم أخبرته أن أغلب من تم تهريبهم من دول أوكرانيا والصين وروسيا ودول شرق آسيا، بمعدل ثلاث إلى تسع أفراد في كل أسبوع، ولولا أنهما غَيَّرا الفندق المعتاد في هذه الرحلة، وإبلاغ مدير الفندق الجديد عن اختفاء الفوج كاملًا لتم الأمر بسلام مثل كل مرة..

أكملت «نجلاء» أنه رغم خطورة الأمر فقد يفقد السائح حياته بين الجبال إلا أن الإقبال عليه مرتفع، نتيجة لسمعة إسرائيل الاقتصادية وارتفاع مستوى معيشة الفرد فيها، مما كان يشجعها على الاستمرار، لذا تلجأ لاستخدام أفراد من عصابات التهريب في رفح مقابل مبالغ مالية ما بين ألفين وخمسة ألاف دولار للفرد الواحد، وهي تحصل على ثمانِ مائة وثلاثة آلاف دولار مقابل كل شخص تساعد على تهريبه، تتقاسمها مع «خالد»، تساعدها شركات سياحية أخرى داخل مصر وبعض الإسرائيليين على الجانب الآخر.

تشاجرت مع زميلها فسقط منها اسما من غير قصد فكان كالقنبلة المدوية التي شتَّتت أعصاب المحققين، اعترفت «نجلاء» بأن من يسهل عملية الهروب على الجانب الآخر، همزة وصلها مع الجانب الإسرائيلي والذي ينهي كل الإجراءات، هو شخص ذا نفوذ قوي وكشفت النياط عن جاسوس من نوع خاص، شخصية مهمة في تل أبيب، يتقاضى عمولة نظير كل شخص يسهل هروبه إلى داخل إسرائيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم تشديد الحراسة على الحدود والمنافذ والدروب الصحراوية بكل مدقاتها، مما أدى إلى إحباط محاولة تهريب ثلاثين سائحًا أجنبيا من خلال مصر إلى إسرائيل، مما أثار ضجة حول ضرورة إنهاء هذه القضية وعقاب كل المتورطين فيها، وتم تحويل القضية من مجرد اتهام بتهريب مجموعه من السائحين الأجانب إلى إسرائيل، إلى قضية تخابر مع الموساد بعد ثبوت تورط دبلوماسي مصري.

تم إجراء تحقيقات سرية حول هذا الدبلوماسي لعدم لفت الأنظار، وعندما طُلِبَ للتحقيق معه، جلس أمام وكيل النيابة بكل ثقة ولم يجد مفرًا لمواجهته بالأمر إلا منحه ملف القضية، قرأ السفير ما فيه، ثم بكل هدوء وجَّهَ إليه الحديث: «إذن كُشِفَ الأمر، حسنًا أعترف بالقيام بتهريب هؤلاء الأفراد ولكن الأمر بسيط فهو مجرد تهريب أشخاص إلى داخل إسرائيل وليست عملية تجسس، لا يوجد أذًى موجَّهًا إلى أي شخص هنا»، بكل بساطة برر الأمر لنفسه، عندما أخبره وكيل النيابة أن من هؤلاء مَنْ يعملون ضد أخوته من الفلسطينيين ويقتلون فيهم وعلى أبسط الفروض ينهبون خيراتهم، رد بدون مبالاة: «تكبر الأمر يا فندم، البلد في حالة سِلْم مع إسرائيل وبيننا تطبيع كامل وهي جارة بيننا أوجه تعاون كثيرة مفيدة لكلا الطرفين».

ضغط عليه المحقق أكثر كي يعترف، فكيف يقوم مَن في مِثلِ مركزه بهذا الفعل المشين ويلوث سمعته وتاريخه المهني؟ فاكتفى بالقول إنها مجرد مصالح سياسية وتبادل منافع غير مقصود بها الإضرار بصالح البلاد، ثم أدلى باعترافاته كاملة لتتسع دائرة الاتهام ويرتفع عدد المتهمين إلى ثمان، منهم ثلاثة شخصيات بارزة في الدولة، وخمسة موظفين في الشركة السياحية المتواطئة في الأمر.

ضم الاتهام مجموعةً من البدو من مدينة رفح ممن يعملون كدليل للأفواج السياحية بما لديهم من خبرة بالمنافذ الجبلية المؤدية إلى قلب إسرائيل، مع عددٍ من المتهمين الإسرائيليين الذي يسهلون من عملية الهروب بحجة السياحة داخل إسرائيل ثم تدبير الإقامة لهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد تجهيز ملف القضية ضم اسم شركة «مازدا الإسرائيلية» وصاحبها الإسرائيلي «زائيفي رزفائيل» والتي تقع أمام القنصلية المصرية في تل أبيب، فلقد أظهرت التحقيقات أنها المحرك الأساسي لهذه العمليات والمنظم لها بعد أن أفهمت الجميع أن هؤلاء مجرد عمال بِناءٍ وتشييدٍ من الفئة الرابعة ولا خطر من دخولهم، أثبتت التحقيقات أيضا أن الشركة عملها الأساسي هو توفير عمالةٍ صينيةٍ وماليزيةٍ وفلبينيةٍ عبر خط نقلٍ من القاهرة إلى تل أبيب، حيث يأتي هؤلاء إلى مصر بحجة السياحة ثم يتم تهريبهم بشكلٍ منظَّمٍ إلى تل أبيب..

لتجميع هذه العمالة قامت بتجنيد ماليزي وأفريقي بالإضافة إلى نجلاء وخالد والدبلوماسي دكتور عصام الشناوي، نظير عمولات ومبالغ مَالية يتفق عليها مع كل عملية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم تحويل القضية إلى محكمة القاهرة لتداول القضية والفصل فيها..

هل سيفرق معرفة عدد السنين؟!

كيف سقطوا بل كيف سقط دبلوماسي بهذه البساطة؟!

هل شعر المتهمون بمدي التشوه الذي نال ذويهم بسبب فعلتهم؟!

هل أغلقت القضية فعليًا وتوقف تهريب البشر قبل المخدرات؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلات داخل الورق

أنهيت الكتابة ثم سمعت أذان الفجر فأحضرت اللاب توب وبدأت أكتب ما دونته على الورق في ملف word مع إعادة صياغة وترتيب للأحداث، أنهيت القصة في الساعة السادسة، فقررت النوم لأرتاح حتى موعد الدار في الحادية عشر صباحًا، ضبطت المنبه على الساعة التاسعة فَعَلَيَّ البحث عن مصدر آخر لقصصي الواقعية غير ابن عمي.

ربما عليَّ أن أؤجل أي طلبٍ جديدٍ منه حتى تخرج قصصي إلى النور، عندما يرى ردود الأفعال من القراء سيمنحني هو صور القضايا دون طلب، النوم سلطانٌ مريحٌ لشعبه، يمنحه أحلامًا ورديةً، وعبقريةً أحيانًا أخرى، فليحترق العالم من خلفي المهم أن أنال قسطًا من الراحة، لا أتمنى أن يحترق حقًا وإلا فقدت الأمل في أن أحقق حلم كوني كاتبة كبيرة ذائعة الصيت يومًا، لكن للنوم دلالة ولا مانع من بعض مشاغباته السخيفة بإرسال كوابيس تحرق الأعصاب، لكن هذه المرة كان رؤوفًا معي وأرسل حلما مثيرا فلقد ذهبت في جولة سياحية إلى أوروبا.

استيقظت نشطة مبتهجة بحلمي الجميل، تقلبت في سريري لبعض الوقت ثم قررت الخروج إلى عملي، اغتسلت ثم ارتديت ملابسي سريعًا داعيةً ألَّا يكون هناك عمل اليوم في الدار كي أتفرغ لتفاصيل حلمي، لقد اعتبرته إشارةً عن قصصي التالية لكن علي أولًا استئذان رئيس التحرير، فذهبت إلى الجريدة ومعي ملف قصة الجاسوس «الدبلوماسي عصام الشناوي»، قرأها سريعًا وأخبرني أنها ستنشر بعد أن يراجعها مراجع الجريدة اللغوي، أضاف أن المحاسبة ستكون شهريةً عن هذه القصص، إلا لو سلمت الأربع في بداية الشهر وقتها يمكن محاسبتي بعد الموافقة على مضمونها، عرضت فكرتي بأن تكون قصصي دوليةً غير محددةٍ أو محصورةٍ في مصر فقط، وافق من حيث المبدأ على أن تكون موافقته النهائية بعد قراءة أحد هذه القصص.

استأذنت في الانصراف وذهبْتُ رأسًا إلى دار النشر، لم تكن هناك مهام توزيع جديدة؛ فجلسْتُ مع سكرتيرة الدار نثرثر عن عملي الجديد وكيف أنه سيفيدني عندما أفرج على كتاباتي وأقرر نشرها ورقيًا، فهي الوحيدة بعد «أحمد» التي تقرأ ما أكتب من قصصٍ وروايات لأنها و«سيمون» ابنة صاحب الدار صديقتاي الوحيدتان، أمضيت اليوم في روتينٍ مُمِلٍ حتى حان موعد الانصراف في الخامسة.

تناولنا الكشري عند «توم & بصل» ثم تجولنا لساعتين وسط البلد لإشباع رغبتها في المشاهدة على أي شيءٍ وكل شيء، اشتريت في الطريق طبق حلويات شرقية، عدت بعدها إلى شقتي منهكةً؛ فنمت حتى الواحدة بعد منتصف الليل، تناولت عشاءً خفيفًا وجهزت كوب قهوةٍ مضبوطة، ثم بدأت أقرأ في ملف القضية التالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-شريفة-

الأستاذة «شريفة الباز» المدير التنفيذي للمعهد، حدث هذا بعد سنوات قليلة جدًا، ثم مرت بضعه سنوات حققت خلالها مراحل عديدة من حلمي الأكبر، حافظ فيها صاحب العمل على المكان واستمراره رغم كل ما يواجهه من صعوبات ومشاكل من منافسيه، وأخرى يصنعها إخوته من أسفل الطاولة ليحققوا مكاسب صغيرة على حسابه دون أن يدري..

حدث ما لم نتوقعه رغم أنها سنة الحياة، لقد مرض الحاج لفترة، اضطربت كل الأمور وحدثت حالة من الهرج بين الموظفين، لكن حسم الأمر لصالح زوجة الحاج، فقد أتت وأعلنت أنها مكانه حتى يعود بالسلامة من ألمانيا بعد إجراء جراحة بسيطة في المخ، فهي لن تترك الفرصة لاستغلال إخوته للوضع في ظل غياب الابن الوحيد والوريث لكل هذه الإمبراطورية.

علِمنا بعد ذلك أنها كانت عملية كبيرة وخطيرة عندما عاد وأصدر قرارًا بمنحنا مكافأة نصف شهر فورية فرحًا بنجاته من بين براثن الموت، وأصدر قرارًا بضم إدارة مكتب الاستشارات مع إدارة مركز التدريب ويتولى الإدارة أخوه «جلال»، ثم ضم مكتبي الأراضي والعقارات وتأجير الشقق المفروشة معًا تحت إدارة أخيه «حسان».

لم تكن تلك المشكلة، المشكلة تلخصت في أن الحاج «جلال» تعامل معنا على أننا مجرد أرضٍ أو عقار يريد توفير أي رسوم قد تزيد تكاليفه فكان ينتهز أي فرصة ليخصم للموظفين، ومهما اشتكينا أو حاولنا إقناعه لا يفرق معه، صَمَّ أذنيه عنا، لجأ الجميع لمديرة المكتب والسكرتارية بما أن «حنين» ابنته فطلبوا منها التوسط عنده وكانت النتيجة عدم الحصول على زيادة شهر يوليه لعدم توافر نقود سائلة ولا رصيد في البنك يسمح بهذه الزيادة مع احتمالية ألا نحصل على رواتبنا أيضًا.

صراحةً أغضبني الأمر هل يحاول إذلالنا؟ ألا يكفيه أننا نتحمل شخصًا جاهلًا مِثْلَه لم يحصل على الابتدائية ولا يستطيع التوقيع إلا بمساعدة شخصٍ يشير إليه أين يوقع، لا يجوز الصمت انتهزت فرصة تبليغي للأحداث اليومية كالمعتاد للحاجة ودسست الخبر أثناء الحديث برشاقة، نعم كنت منذ رئاسة الحاج للإدارة أبلغ زوجته بكل ما يدور دون أن يشك في أي شخصٍ مظنة أن الواشي أحد الأقارب العاملين معنا كل هذا لأنال رضا زوجة المدير، فبنظرتي الواعية كنت أعلم أن لها يد خفية في كل ما يدور في المركز، وكي أكسر سمها نحوي وأثبت أقدامي..

فعلت هذا بطيب خاطر، اتصلت بها وأخبرتها كيف يتدهور حال المركز من بعدها هي والحاج «سعيد» بما يهدد بسقوط المركز أو إغلاقه بسبب الإدارة الحالية التي لا تجيد إدارة دفة المركز بكفاءة، ولأنني أعرف حجم المشاكل بينها وبين إخوة الحاج كنت متأكدة من أنها ستتصرف بما يرضيني.

في اليوم التالي حضر الأستاذ «مصطفى» الولد الأكبر مالك كل هذه الإمبراطورية مستقبلًا، ومعه أخته «مروة» والحاجة «أحلام» وبعد مشاورات بينها وبين مديري الشئون القانونية والحسابات ونائب المدير وهو منصب صوري بالمناسبة لا يستطيع التصرف في أي شيء دون موافقة المدير أيا كان مَن هو، تقرر الاجتماع بالموظفين لسماع شكواهم، ظنَنَّا أن الأمر سيتحسن وأخرج كل موظف

ما في جعبته وأفرغ ما في جوفه وشكا كل منهم مما يعانيه منذ عُيِّنَ سواء منذ شهور أو منذ سنوات، ثم ونيابة عن الموظفين تبرع «وائل» مسئول الخزينة وطالب بضرورة تحسين الوضع خاصة وأنه يعلم جيدًا أن الأحوال المالية في أفضل حالاتها ولا صحة لما يذكره الحاج «جلال» من وجود خسائر أو نقص في إعداد الطلاب المتدربين، وإلا..

سنضطر للتظاهر داخل المركز حتى ننال حقوقنا، أعلنت «الحاجة» أن «الحاج» أوشكت فترة الستة شهور نقاهته على الانتهاء وسيعود لإدارة المكان بمساعدة ابنه «مصطفى» وستتدرب «مروة» لتكون معهما بعد هذا العام عندما تتخرج تنهي شهادتها في معهد الحاسب الآلي، وعلينا الصبر قليلًا على موضوع زيادة المرتب حتى يعود صاحب المال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«جهزي تقريرًا عن الاجتماع يا شريفة»

انتهى الاجتماع بتصفية الحسابات الخاصة بين الحاجة «أحلام» والحاج «جلال» بعودته إلى إدارة مكتب الأراضي والعقارات وأن يأخذ معه «حنين» سكرتارية وأن يتولى ولدها «مصطفى» الإدارة وهي معه تساعده حتى تتدرب أخته «مروة» على تلك الأمور وتكون هي نائبةً فيما بعد، بالإضافة إلى قرارٍ بخفض رواتب أقرباء الحاج العاملين معنا إلى النصف ليتساوى معنا؛ ولكن هيهات.. فقد أصبحتٍ مرتباتهم الأعلى.

كُن الولدَ المدلل لرغباتك، شهواتك ثمَّ شهواتك ثمَّ شهواتك؛ هي محركك ومصدر أفعالك، كُن سلطان الحياة، تنَلْ الدنيا بكل ما فيها، تصرف وكأنَّ الدنيا ملكُ يمينِك وأنك مخلدٌ فيها.

نصيحة ضياع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-سمير عثمان-

قضية لم يناقشها الإعلام بنهاية تقشعر معها الأبدان، أخفت السلطات المسئولة معلوماتها لعدم إثارة زوابع، بسبب تورط الجاسوس في تسريب أسرار تخص مصر ودول عربية أخرى.

بدأت الساعة التاسعة مساءً بقضية «سمير عثمان»، مجرد مجند أنهى تجنيده ولم يجد فرصة عمل تناسبه، لذا قرر السفر إلى العراق رغم الحرب الدائرة بينها وبين إيران، لم يستطع إيجاد فرصة عمل وبعد عدة حسابات اعتمادًا على الوضع الراهن قرر الانضمام إلى الجيش الشعبي العراقي بعد أن سمع إشاعات عن تقاضي المنضمين لمبالغ طائلة تعوض الخطر المحدق بهم.

استطاع بكفاءته التدرج في التنظيم السري لحزب البعث الحاكم حتى وصل إلى درجة رفيق، ثم مرتبة ملازم أول متخطيًا الكثيرين ممن انضموا معه أو قبله بفترة، كان يتقدم للأمام بخطوات سريعة نوعًا وواثقة ومدروسة، حتى نقل إلى جهاز المخابرات العراقية ليتبدل الحال من حال إلى حال مختلف كليًا.

بين ليلةٍ وضحاها تحول إلى أحد هؤلاء الكبار الذين كان يراهم من بعيد، أو عبر شاشة التلفاز، الآن هو من الرجال المهمين، لديه سيارٌة وسائقٌ خاص، يحصل على راتِبٍ كبير، لكنه لم يشعر بالراحة فوسطهم شعر بأنه لا زال صغيرًا وأن الطريق لا زال طويلًا ليحقق ما يصبو إليه من ثراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استغل أول فرصة للسفر وقرر أن تكون إجازته في تركيا، بلد الجمال والغنج، جو عربي وحياة أوربية، حجز فندق في مدينه أنقره، وهناك بدأت رحلة أخرى ليظهر ما خبأه في جعبته لسنوات.

عندما وصل إلى الفندق صعد إلى غرفته وبدل ثيابه ثم خرج في رحلة لاستكشاف المدينة، وهناك في الخارج وسط مجتمعٍ لا يعرفه فيه شخصًا واحدًا بدأ يسأل عن مقر السفارة الإسرائيلية، في السفارة تم استقباله أفضل استقبال وبحفاوة، لكن قُبل طلبه بالانضمام إلى صفوف الموساد ببعض التوجس وطلبوا منه أن يمنحهم فرصة للتفكير.

بعدها بثلاثة أيام تَلَقَّى اتصالًا بالذهاب إليهم، ليخبروه هناك بقبوله بينهم، كانت أولى مهماته داخل جمهورية مصر العربية وليس العراق كما كان يظن، واستغلالًا لمهاراته في الغوص وذكائه العالي، تم الاتفاق أن تكون وسيلته للاتصال بهم أن يسافر إلى طابا المصرية وتكون إقامته في فندق هيلتون وهناك من سيغطي غيابه، ثم يخفي جواز سفره تحت ملابس الغوص التي سيرتديها أسفل ملابسة العادية، ويسافر غوصًا حتى إيلات.

هناك سيجد ضباط موساد في انتظاره، لينهي مهمته ويسلم ما حصل عليه ثم يتلقى مهامه الجديدة، ويعود إلى طابا كما خرج منها عن طريق البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمر على هذا الحال لسنوات، حتى حامت حوله الشبهات لكثرة سفرياته إلى خارج البلاد دون داعٍ، ولسفره إلى جنوب سيناء خاصة وأنه يختفي هناك لأيام ثم يظهر فجأة كما اختفى فجأة..

لذا قامت المخابرات بوضعه تحت المراقبة طوال الأربع والعشرين ساعة، داخل مصر وخارجها، ليتم التقاط صور له أثناء لقاءاته مع بعض الأشخاص المشتبه بتورطهم مع الموساد، لتتغير نوعية الرقابة عليه ويتولى فريق خاص متابعة قضيته، تولى فريق آخَر مسئولية مراقبة تحركاته أثناء رحلاته إلى جنوب سيناء وطابا، لمعرفة أين يختفي عندما يذهب متحججًا بالغوص والاستمتاع بهدوء المياه في الأعماق وجمال التنقل بين الشعاب المرجانية.

صُوِّرَ وهو في ملابس الغوص متجهًا إلى البحر، ثم أسفل الماء وهو متجهٌ إلى تل أبيب، حتى تم تجميع أدلة قوية لا يستطيع النفاذ منها، ولا إيجاد مهرب يخلصه من شباك أحكم نسجها رجال المخابرات المصرية حوله، ليتم إبلاغ السلطات بالأمر فتم استخراج أمر بالقبض عليه، وتوجهت قوةٌ خاصةٌ من المخابرات العامة مع رئيس نيابة أمن الدولة إلى منطقة الدرب الأحمر، ومنها إلى منزل «سمير ليتم تفتيش كل ركن وكل زاوية فيه، عُثر على جوازات سفر مختلفة، وأوراق تخص الموساد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى الأمر نظريًا تبقى أمر واحد، القبض على سمير عثمان، تم التأكيد على الفريق المراقب له بعدم ترك أي مجال أو فرصة لهروبه منهم، لتتوتر الأعصاب وتتحول مياه طابا إلى بركانٍ من الانتظار والترقب، خاصة بعد أن بلغ مراقبيه أنه يغوص إلى اتجاهٍ آخَر، ولا يعلمون هل ضَلَّ طريقه أم أنها مهمة مختلفة تتوجب توجهه إلى مكان آخر غير طابا!!

تم إرسال إشارة بالالتحام والقبض عليه، ليشعر بحركة سريعة خلفه، سقط قلبه أسفل زعانف قدميه على هذا العمق، لقد اعتقد أنهم سمكة قرش ستهاجمه، نظر نظرة خاطفة خلفه ليشعر بالراحة والطمأنينة عندما رأى أنهم غواصون مثله، أشار بما يعني سعادته لمقابلتهم، وتوقف مشيرًا أنه ضائع منذ فترة حتى شعر باليأس في معرفة الاتجاه الصحيح، أشار قائدهم له أن يأتي معهم وأحاطوه من كل جانب، عندما وصلوا إلى الشاطئ تفاجأ بقبضهم عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مَرَّت ست ساعات كان يتم التحقيق معه بعد نقله بسيارة خاصة بهم إلى القاهرة، مَثُلَ أمام رئيس نيابة أمن الدولة، وتم توجيه الاتهام إليه، لم يستطع المراوغة خاصةً بعد ضبط جواز السفر أسفل ملابس الغوص، ومواجهته بما تم العثور عليه داخل منزله، فاعترف بكل شيء، وتم تحليل جوازات السفر الذي أثبت العلم تشبعها بمياه البحر لإخفاء «سمير» لها أسفل ملابس الغوص أثناء رحلاته لإيصال ما جمعه من معلومات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما سأل عن أهمية هذه الجوازات وهو ينتقل غوصًا، قال إنها لحالات الطوارئ ولكنه لم يستخدمها أبدًا في العودة من إسرائيل، فهو لم يُضِع طريقه في البحر ولا مرة.

تم التغطية على أحداث القضية والتحقيقات فيها، بعد ثبوت تورط «سمير» مع الموساد في تجميع معلومات تخص العديد من الدول العربية مستغلًا عمله السابق في المخابرات العراقية، لتُحَوَّل قضيته إلى المحكمة للفصل فيها وتحقيق العدالة، وقد حُكِمَ عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بداية الحلم -شريفة-

تولى «مصطفى» إدارة مركز التدريب، لم يتخلص مع حبه للانطلاق والسعي خلف متعته ولكنه تعلم الانصياع لأوامر والدته والاهتمام بعمله لبضعه ساعات يوميًا، وتولت «مروة» إدارة مكتب الاستشارات والتي حاولت جاهدةً أن تثبت جدارتها في ذلك، أما والدتهما فتولت إدارة الشئون القانونية والمالية يساعدها الأستاذ «سعد» مدير الحسابات.

طلبت مني تجهيز عدة اجتماعات قصيرة مع كل مَن في المركز كان ملخصها، ترك الأستاذ «سامي» العمل بعد أن طالبه أولادة بالراحة فيكفيه سنوات عمله الطويلة في الحكومة ولا داعي ليحتمل سفاهات العمل الخاص، خاصةً بعد أن طلبَت منه «الحاجة» في الاجتماع ضرورة الحضور يوميًا والالتزام بساعات العمل الرسمية، وتم إبلاغ الأستاذ «محمد» مدير الشئون القانونية بالاستغناء عن خدماته بعد اكتشاف أنه يساعد الحاج «جلال» ويخبره أسرار المركز، والتنبيه على دكتور «صبري» أن يركز في عملة كمدرب إذا أراد الاستمرار في العمل عندهم (أخبرته عندنا وليس في المركز أمعانًا في الضغط عليه)، رفد «وائل» لأنه يخرج أسرار مكتبة وغير أمين على عمله..

اعتقد أنها تصفي حسابها معه لأنه هددهم بطريقة مباشرة يوم اشتكينا الحاج «جلال»، ولكسب باقي الموظفين في صفها تقرر زيادة الراتب بواقع مائتين جنيه، وتم إرسال رسائل شفهية ورمزية إلى إخوة الحاج رحمه الله بعدم التدخل فيما لا يعنيهم كي لا تسحب منهم إدارة ما كُلِّفوا به مع ضرورة تقديم تقرير شامل ووافٍ كل شهر عما تم انجازه وخفض رواتبهم بنسبة ٣٠٪ لتظل أعلى من مثيلاتها ولكنها في النهاية أقل مما كانوا يحصلون عليه.

لتبدأ حرب جديدة غير معلنة، خاصة بعد أن وكلت الحاجة محاميًا جديدًا باع كل الأراضي والعقارات والشقق، وحُوِّلَت إلى أموال في البنك باسم الأولاد، هكذا لم يعد الإخوة يحظون إلا بفتات مائدة زوجة الحاج وأولاده، فالمكاتب لا تُدِرُّ ربحًا كافيًا بدون ما كان تحت أيديهم من أموال للحاج يستثمرونها في الأراضي والعقارات، إنهم لم يعتادوا يومًا على ذلك، فغير منح الحاج الكثيرة كانوا يحصلون على الكثير من وراء ظهره فرغم أنهم شككه فيهم لكنه لم يستطع إثبات شيء خاصة مع مساعدة محاميه الخاص في مقابل نسب معلومة من كل عملية تتم في الخفاء، لذا اتفقوا بعد خصام سنوات وحاولوا التكتل ليعيدوا عز الماضي فهو أخوهم، وهم الأولى بهذا النعيم من زوجته وأولاده المرفهين طيلة حياتهم، هم مَن ساعدوا الحاج في إدارة هذه الأملاك لسنوات طوال ولهم نصيبٌ فيها بل هم شركاء في ثروته بمجهودهم...

أما نحن موظفي المركز ومكتب الاستشارات فقد استفدنا من خلافاتهم التي تنصب علينا أولًا وأخيرًا؛ فالحاجة تحاول تجميعنا حولها بالمكافآت والمنح والمعاملة الجيدة، واستغللت أنا الأمر لصالحي أكثر بأن بدأت إقامة علاقات جيدة مع الجميع فيومًا سيصير كل هذا لي لهذا أحتاج لشخص قادر على تمويلي عند اللزوم، تشعبت علاقاتي وتخطت حدود العمل لنقدم لبعضنا البعض خدمات متبادلة تتخطي إطار مكان العمل، استطعت عبرها توسيع نطاق معارفي لأصادق شخصيات عامة مهمة.

لم أحاول إقامة أية علاقات عاطفية وجل اهتمامي كان مُنْصَبًّا على تحقيق حلمي الكبير على أرض الواقع وامتلاك إمبراطورية مماثلة، حتى جاءني ذات يوم دكتور «صبري» يدعوني على العشاء وتقضية بعض الوقت الممتع في أحد المطاعم الفاخرة، أربكني الأمر للوهلة الأولى وأجلت الموافقة حتى أنتهي مما ورائي من أعمال ثم أجيبه، لكنني لم أستطع إنجاز أي شيء وشردت في دكتور «صبري» أحلل شخصيته وتصرفاته..

هو معي على نفس الجانب، نسعى لنفس الهدف، كنا متفقين في الأسلوب والأفكار والأحلام، كيف لم ألتفت لذلك من قبل؟! عليَّ تخصيص بعض الوقت لهذا الأمر فهو يستحق، اتصلت به وتعللت بعدة أسبابٍ واهيةٍ لرفض الدعوة وأغلقت الهاتف سريعًا، لأفاجَأ به أمامي بعد دقائق قليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقترب دكتور «صبري» مني كثيرًا، ملامحه عادية نصف رأسه خالية من الشعر لكنه مع ذلك يبدو جذابًا بذقنه النصف حليقة، قصير ممتلئ البدن، لا يتخلى عن نظارته الطبية مهما كان السبب، يرتدي بطريقة كلاسيكية يحتاج لبعض التعديلات على هندامه يمكنني فعلها دون مجهود يذكر، الأهم من ذلك يملك ذكاءً يُمَكِّنُهُ من الوصول إلى ما يريد دون مجهود يُذْكَر..

نظراته حادة تفزع مَن أمامه ولكنني لست بتلك الضعيفة التي ترتعد لمجرد نظرة، وقفت لأبادله نظراتٍ باردةٍ وعلى شَفَتَيَّ ابتسامةً مَرِحَةً مُرَحِّبة، هو مثلي أولًا وأخيرا يهتم بمصالحه، يجيد قراءة وفهم مَن أمامه وقد تفاهمنا دون حديث، لكنه حفظًا لماء الوجه دعاني للمرة الثانية محاولة جعل الأمر أكثر رومانسية، «دعينا نتعرف على بعضنا شريفة»..

لم أحبه لكنني لم أنفر منه، تعددت لقاءاتنا وبدأت أجد من أخطط معه للقادم؛ لذا اتفقنا على ما ننوي فعله؛ وكان أول اتفاق نفذ قرار الزواج كي نكون معًا في كل خطوة منذ البداية، هو يملك مقومات الإدارة والتنظيم والجانب التعليمي والواجهة الرسمية الدبلوماسية، وأنا أملك عقلًا مدبرًا بِتَأنٍّ وخطوط اتصالٍ مع الجهات المسئولة عن تصاريح العمل، بالإضافة إلى علاقاتي مع أفراد في هيئة التأمينات والضرائب ووزارة التعليم، ولديَّ من الإمكانيات والخبرة ما يؤهلني للتسويق والدعاية لأي شيء أريده وحب المغامرة، فلا حدود لطموحي.

بدأنا رحلة السيطرة على المركز باكتساب ثقة الموظفين، والتقرب من الجميع فمع ضعف ابنَي الحاج رغم مساعدة والدتهما إلا أن خلافاتهم مع أعمامهما كانت أكبر من قدرتهم على الصمود ثلاثتهم، وستهتز أركان مملكة «الحاج» -رحمه الله- التي بناها عبر سنوات طوال وتتبعثر، لن أساعد في إسقاط الإدارة وسأقدم ما يُطْلَب مني مِن عَوْنٍ ومساعدة ولكنهم يتسمون بالعناد لا يستمعون إلا لأنفسهم ثلاثتهم لهذا سأكون أيضا مستعدةً لتقديم مساعدة أخيرة خاصة بفضل دعم «صبري» والتي ستكون في الغالب شراء المركز والمكتب وإراحتهم من أعبائهما...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-سهام-

تلفَّتُّ حولي، الشقة خاوية على عروشها لا أسمع سوى نفسي وصدى أنفاسي، حدقت في الساعة المعلقة أمامي، «يا ربي الساعة الثانية بعد منتصف الليل!!»، مَرَّ الوقت سريعًا، سهام، سهام، ستجني بهذا الشكل، هل تمنحني الكتابة وخاصة في القضايا والحوادث حقنًا من الأدرينالين؟! لا أعلم كل ما أدركه جيدًا أن نشاطي يزيد بطريقة ترعبني فلا أستطيع النوم إذا بدأت الكتابة إلا بعد أن ينهك جسدي ويرفع عقلي راية الراحة

«أرجوكِ يا فتاة سأتوقف عن العمل بسببك»

اعتقد أن الكتابة هي أفيون حياتي، أشعر بطاقة عارمة تفتت عقلي تحت وهج نيرانها المشتعلة في جسدي، تتملكني حالة نشاط قوية لذا سأبدأ في الكتابة عن قضية التجسس والتي كان بطلها الفنان سمير الإسكندراني.

أعجبك كل ما سبق وبدأت التنفيذ فعليًا، ستكون ميكافيللي القرن الحالي، لكن انتظر.. تذكر أنني لم أعِدك بنصيب الأسد من ملذات الآخرة!

نصيحة ضياع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمير الإسكندراني

سهرات وأمسيات أدبية وفنية يمتزج فيها الشعر بالغناء، والد متفتح الذهن شيق الحديث يملك صوتًا عذبا، عاشق لأشعار بيرم التونسي، وألحان الشيخ زكريا أحمد، أحاديث تغطي كل أحداث الحياة في مصر والعالم، سياسة.. حرب.. اقتصاد.. نشأ «سمير» وشقيقه «سامي»، كانت الأمور تسير على خطى ثابتة محببة إلى نفس الصبي حتى انتقلت الأسرة إلى شارع عبد العزيز.

بعد الأحياء والحارات المصرية الصميمة انتقل وسط عالم متفرنج، جيران من جنسيات مختلفة، إيطالي.. يوناني.. إنجليزي، تقاليد وعادات مختلفة عما تربي وسطها، لكن أجمل ما في هذا الحدث كان تعرفه على «يولندا» تلك الفاتنة ابنة سنيورا ماريا، إيطالية متفتحة على العالم، أسرت قلبه وسجنته داخل عالمها الساحر، تعلم الإيطالية لأجل عيون يولندا، ليقضي بصحبتها جل أمسياته على سطح منزلهم في شارع عبد العزيز، ومن خلالها تعرف في هذه الأمسيات على مجموعه من الشباب الإيطاليين واليهود أيضًا، أَتْقَنَ الإيطالية كي يظهر حبه بل عشقه بلغة حبيبته الأم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أجاد «سمير» اللغة حتى حصل على منحة دراسية صيفية في جامعة مدينة بيروجيا الإيطالية لدراسة الأدب واللغة، سافر قبل موعده بثلاثة أسابيع ليتأقلم على الجو والحياة في إيطاليا، شغف بالبلد ومَن فيها، حتى دعته والدة دكتورة «ماريا هايدر» الأستاذة بجامعة فيينا لقضاء الليلة معها في مرقص صغير، لم يمانع وانطلقا في رحلة مرحه وبينما يرقص معها صدمت قدمه عفوًا راقص آخر جواره، الذي نظر إليه باستهتار سائلًا عن جنسيته لينفجر بركان غضبه عندما أخبره سمير أنه مصري، بغباء هدد «سمير» بقبضة يده، وصرخ قائلًا وأنا إسرائيلي، يومًا سنحتل مصر وسأبحث عنك وسط الدمار والخراب الذي سنلحقه بكم، وأقتلك...

أخرسته ضربة قوية من قبضة «سمير» الذي حطم فكه، ليتحول المرقص إلى معركة حامية الوطيس، ثم تركه وانصرف، مرت الليلة بكل ما فيها، ثم انطلق إلى بيروجيا حيث استقر «سمير» لدي «سنيورا كاجيني»، امرأة جميلة الروح عاملته كابن لها وأكرمت إقامته لتخفف عليه من آثار الغربة، مرت شهور الصيف وانتهت منحته ليعود إلى القاهرة يحتل كل ما فيه شوقه إلى حبيبته يولندا، كي يُسْمِعَها كل ما تعَلَّمه من كلمات وجمال عن العشق والغرام، سيجعلها تبحر وسط أشعار وأغاني إيطالية، لكن كانت الطامة الكبرى والصدمة التي تفاجأ بها وهي رحيلها مع صديقها القديم «أورلاندو»؛ ليتزوجا في أوروبا، نسيت أمره خلال شهور الصيف القليلة ورحلت لتتزوج غيره بكل هذه البساطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شخصية «سمير» لم تكن من النوع القابل للتحطيم، لذا قرر الاستمرار في دراسة الإيطالية، والارتقاء فوق وجعه بعدها حصل للمرة الثانية على منحة دراسية في جامعه بيروجيا، ليقم ثانية لدى «سنيورا كاجيني»، قرر هذه المرة تعميق علاقاته مع زملائه، ويومًا وهو يلعب بلياردو في الجامعة، قابل «سليم»، شابٌ يجيد العربية بطلاقة بالإضافة إلى الفرنسية والإنجليزية والإيطالية، غير إجادته

لمهارات الحواة بتنفيذه بحرفية بعض الألعاب بما يبهر طلاب الجامعة في قاعه اللعب ومن ضمنهم «سمير»، الذي انجذب إليه وصادقه بما أتاح بعد ذلك فرص تبادل الأحاديث والأخبار.

كي يعرف منه أنه يعقد صفقات تجارية، تتطلب تحركًا سريعًا وسرية لهذا يختفي كثيرًا عن بيروجيا، ثم يعود فجأة كما اختفى فجأة، لكن ما استغربه «سمير» هو أنه يصطحب معه أغلب هذه السفريات المفاجئة فتياتٍ حِسانٍ، بل هن فاتنات ويصرف عليهن ببذخ شديد، مما بعث الشك في نفسه، ودعاه للحذر منه لكن بطريقة غير ظاهرة، كي لا يثير عداءه دون داعٍ، مرت الأيام على نفس المنوال حتى أخبره أحد زملائه أن «سليم» ليس عربيًا ويملك جواز سفر أمريكي، مما أثار الريبة داخله أكثر ليقرر كشف لثام هذا الغموض، حتى جاءت اللحظة المنتظرة، بينما يجلس مع «سليم» أخبره الثاني أنه مندهش من شخصيته التي تجمع ما بين الملامح الشرقية والسلوك الغربي، من أنت؟!

قرر «سمير» استغلال الفرصة خاصة أنه مؤهل لهذه بحكم معاشرته لجنسيات أوروبية متنوعة وخاصة من اليهود في شارع عبد العزيز، فأخبره أن جده الأكبر يهودي اضطر لإعلان إسلامه كي يتزوج من جدته، لكن والده عانى من معاملة جيرانه له على أنه ابن اليهودي، فهاجر إلى القاهرة، وهناك تعرف على والدته اليونانية الأصل، مما أجج في دمائه جذوره اليهودية أكثر من المصرية.

تفاجأ «سليم» بهذا، وأعرب عن سعادته وفخره بسمير، لقد كان يتوقع أن «سمير» يهوديًا وليس مصريًا صميما، واعترف أنه هو أيضًا يهودي، قَرَّبَهُ «سليم» إليه أكثر وعرفه على صديق خاص، وهو «جوناثان شميت»، ثم للغرابة اختفي، لكن «جوناثان» عامله كصديق مقرب وظل على اتصال مستمر معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت جلسات التعارف بينهما، واستمر «سمير» في التحدث عن جذوره وعلاقاته ومصر وجوناثان مستمتع بكل ما يسمعه، لقد أخبره «سمير» أنه يكره النظام الحاكم، وأنه يتمنى لو أمكنه محاربته، هنا طلب منه «جوناثان» العمل لصالح منظمة البحر الأبيض المتوسط، فهي تحارب الشيوعية والاستعمار، كما سيكون لديه دخل ثابت شهري ومكافآت متغيرة حسب جهوده ونشاطه، فوافق سريعًا معربًا عن سعادة فائقة.

لتبدأ مرحلة جديدة حيث تم تدريبه على استخدام الحبر السري، وكيفية التميز بين الرتب العسكرية، ورسم الكباري والمواقع العسكرية، وكيفية تحديد سمك الخرسانة، وانتهى التدريب بأن طلب منه الانضمام إلى صفوف الجيش في مصر، ومنحه مبلغًا كبيرًا يغطي مصاريفه الفترة القادمة، ثم منحه مجلة صغيرة لنادٍ ليليٍّ في روما، مطبوع فيها صورته وهو يغني في بعض السهرات التي كان يحضرها، وأخبره أن يريها لأصدقائه وزملائه كمبرر لحصوله على هذه الأموال خلال فترة وجيزة.

عاد إلى بيروجيا كان شقيقه الوحيد في انتظاره، لقد جاء ليقضي معه بعض الوقت، قبل أن يسافر إلى النمسا، مرت الأيام في توتر وضغط عصبي حتى قرر «سمير» الاعتراف لشقيقه بكل شيء، أخبرة عن «سليم» وكيف استفزه غموضه فخاض مغامرة غريبة لكشف حقيقته حتى تورط مع شخص يدعى «جوناثان» عرض عليه العمل معهم ودربه على عدة أمور خطرة، مما أصاب شقيقه بالفزع لينصحه بالعودة إلى مصر والهرب فلقد ورط نفسه في أمر أكبر منهما معًا وعليه الحذر وإلا دفع

حياته ثمن مغامرته الغير محسوبة، ثم طلب منه إبلاغ المخابرات العامة في مصر، عليه أن يستبق الأحداث فقد يظنون إذا تأخر أنه جاسوس فعلي, لا مغامر فاشل.

عاد إلى القاهرة وقلبه يتخطفه الهلع، لهذا قرر أن لا يفرط في أي معلومة إلا أمام شخص واحد، استغل أحد أصدقاء والده كي يتصل بالمخابرات العامة، ويطلب من مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر، مارس مديرها «صلاح نصر» سلطاته ونفوذه لينتزع ما يملك من معلومات، ولكنه أظهر العناد والتصميم على طلبه، فتم التنفيذ على مضض وسط نظرات متوعدة.

استمع الرئيس لقصة «سمير» كاملة في حضور «صلاح نصر»، وشاهَدا معًا الحقيبة التي أخذها من «جوناثان»، أراهم الجيوب السرية، والعملات الصعبة، والحبر السري وغيره من وسائل التجسس، اعتقد «سمير» أن الأمر انتهى عند هذا الحد لكن.. الرئيس فاجأه بأن دوره لم ينته بهذا الاعتراف وعليه المساعدة في ضبط أفراد هذه الشبكة، فوافق بكل بساطة بعدما ابتسم فهذه هي مغامرته الحقيقة.

بدأ تدريب «سمير» على كيفية التعامل مع «جوناثان» وأي فرد آخر من الشبكة قد يتعامل معه مستقبلًا، وكيفية المراوغة والتلاعب بخبراء الموساد الذين قد يشكون فيه في أحد المراحل، فأظهر براعة في التحكم في انفعالاته وردود أفعاله كما ثعلب بري.

بدأ في إرسال ما تمده به المخابرات العامة من معلوماتٍ سريةٍ تخص مواقع عسكرية ومراكز قيادية، وخاصة برج القاهرة الذي كان حينها محطة رادار، وقد واظب على إرسال المعلومات دون زيادة بما يزرع الشك في نفوسهم حول وسيلة حصوله على هذه المعلومات السرية والخاصة جدًا.

قابلة «جوناثان» يوما وطلب منه تجنيد أحد أقاربه العسكريين، لكنه اعتذر سريعًا قائلًا: «هو رجل كبير وناضج وأكثر حنكة ولا فرصة لدي في تجاوز أسوار شكوكه»، حينها وثق فيه «جوناثان» أكثر واطمأن إلى إخلاصه وصدقه في التعامل معهم، كان «سمير» متعجلًا لإيقاعه في شِباك شَرِّهِ ولكن ما باليد حيلة؛ فهو مضطرُ لمجاراة شريكه ومَن خلفه حتى تأتي اللحظة الحاسمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وللغرابة لم تكن المشكلة الأساسية لدى «سمير» الخطر وإمكانية تعرضه للقتل ولكنها كانت متمثلة في والده، الذي علم أن ولده ذهب إلى المخابرات العامة المصرية لأمر ما، حاول بعدها معرفة ما حدث هناك لكن كان جهاز المخابرات قد حذر «سمير» من إعلام أي شخص بالأمر، ولأن طبيعته كتومة وافق على إخفاء الأمر حتى عن والده، الذي أخبره صديقه بدوره أن «سمير» ضخم من أمر لا يستحق، لكن الوالد يعلم ولده فهو تربية يديه ويدري أنه ليس بالأرعن ولا المتسرع في الحكم ولكنه لم يستطع التوصل إلى شيء يريح باله مما نغص عليه أيامه وجعله ينقلب على «سمير» منتهزًا كل فرصة للثورة عليه، تَمَثَّلَ ذلك في تكرار غياب «سمير» دون مبرر عن المنزل، ثم سهره لأوقات طويلة حتى انفجر البركان الخامل ذات ليلة، دخل متأخرًا ليجد والده الغاضب في انتظاره، طلب منه تفسيرًا لسهره المتكرر، فصمت.. فما كان من والده المشتعل غيظًا وغضبًا إلا أن طرده من المنزل، معلنًا أن لا مكان لسمير بينهم وهو على هذا الحال المائل..

لم يكن من الممكن لدى «سمير» أن يبرر موقفة أو أن يخبر والده بالحقيقة وأنه تأخر مع أحد ضباط اتصال المخابرات، لأنهما كانا يجهزان ما سيرسله للموساد من رسوم هندسية لبعض المواقع العسكرية، ولكن الضابط عدَّل على رسم «سمير» مما اضطره إلى تعديل خطابه المرفق معها، مما استغرق وقتًا أطول، ثم حمل حقيبة معلوماته وعاد إلى المنزل ليجد والده في انتظاره، اضطره للجوء إلى صديق يقطن في إمبابة من أصل ريفي ويقيم بمفرده، وبسبب تنقله من وسط المدينة إلى شقة صديقة أصيب بالأنفلونزا، فسقط طريح الفراش لأسبوع.

وبسبب مرضه تعطل إرسال الخطاب إلى «جوناثان»، في هذه الأثناء انتبه ضابط الاتصال إلى أنه قد صحح الرسوم بطريقة محترفة لم يتعلمها عميله من جوناثان، مما سيثير حفيظته هو ورؤساؤه على سمير، فَزِعَ لهذه الفكرة وقرر البحث عن سمير لتدارك الأمر قبل أن يرسل الخطاب، ليرسل زميلًا له يتقصى أخباره ليمنعه من إرسال الخطاب.

بعد أسبوع توصل إليه ليحمد الله على مرضه؛ الذي عطل عملية الإرسال وإلا لكان أمر «سمير» قد كُشِف، وسيعلمون أنه يتبع المخابرات المصرية مما يعرضه للخطر من قبل جهاز الموساد، أخذ منه الخطاب القديم والرسوم وأعادها إلى ما كانت عليه في البداية، ثم أضاف «سمير» إلى الخطاب جُمَلًا تظهر تذمره من أحواله المالية واحتياجه الشديد خاصة بعد طرده من منزله ثم أرسله، في الخطابات التالية وهددهم بالتوقف عن العمل مع إغرائهم بإرسال مزيد من المعلومات والصور التي توصل إليها ليضمن أن يسيل لعابهم، مما جعلهم يتأكدوا أنه عميل لا يمكن التضحية به مهما كان الثمن، فرغم طمعه يمتلك من الذكاء والدهاء ما يؤهله لطلب ما يريده دون خوف، أخبروه أن يستأجر صندوق بريد كي يتم تحويل النقود إليه عبره، وفعلًا بعد فترة قصيرة تم تحويل ثلاثة ألاف دولار إليه، داخل مظاريف كلها من داخل مصر.

تأكدت المخابرات العامة وقتها من وجود شبكة متكاملة، تتحرك بكل أريحيه داخل البلاد مستغله إمكانياتها لاستنزاف أسرارها وأمنها، وبمساعدة «سمير» قرروا البدء في خطة الإيقاع بهذه الشبكة، لكن ما أثار الريبة هو قيام الإسرائيليين باستدعاء «سمير» على وجه السرعة والأهمية إلى روما.

حاول التملص من الأمر، لكنه اضطر للموافقة بعد وعود بحمايته من طرف المخابرات المصرية، لكن هناك استقبل بطريقة خشنه وجافة، لقد أخضع إلى استجوابات متتالية واختبارات استغل فيها كل ما يملك من مكر لينجح وينقذ رقبته وروحه، خرج للمرة الألف منتصرًا مُضاعفًا ثقتهم فيه، ليعود بعدها إلى مصر محملًا بطلبات وأوامر جديدة ومبلغ كبير ترضية عما فعلوه معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استغل النقود في استئجار شقة في شارع القصر العيني، وأرسل إليهم يطالب بمزيد من الأموال، لتغطية نفقاته وليؤسس الشقة، مع إثارة فضولهم كما اعتاد بأن لديه مجموعة من أفلام صورها لأهداف عسكرية وحيوية، كما كتب بأنه يخشى إلقاء القبض عليه لو بقيت هذه الأشياء معه، وعدم قدرته على المخاطرة بإرسال كل هذا فيجده رجال الرقابة أو الجمارك، فأرسلوا إليه رقم بريد في الإسكندرية كي يرسلها إليه وهو بدوره سيرسلها إلى «جوناثان».

بدأت الشبكة في التكشف فقد رصد رجال المخابرات، كل من له علاقة بهذا الرقم البريدي، ومَن يرسل إليه أو من يُرسل إليهم عبره، ليتم الكشف عن أضخم شبكة تجسس معظمها من الأجانب المقيمين في مصر، أصحاب مهن وجنسيات مختلفة، مصمم ديكور يوناني، ودبلوماسي ألماني، وجرسون وممرضة وأيضًا مدرس، كانت القضية تتشعب أكثر مما ظن رجال المخابرات، لهذا قرروا استمرار التعاون مع «سمير» لإسقاط الشبكة.

نفذ «سمير» الجزء الخاص به من الخطة بنجاح، حيث أقنع المخابرات الإسرائيلية باحتياجه إلى خبير يحضر إليه في القاهرة، ليطلعه على بعض الأمور التي تثير فضوله لكنه لا يستطيع التعامل معها، وبالفعل تم إرسال الضابط «موسى جود سوارد» متخفيًا، الذي تمت مراقبته ومتابعته، ليقع بين أيديهم أول خيط باكتشافه يجري اتصالات سريه مع موظف بأحد الفنادق يدعى «رايموند بيترو»، والدبلوماسي بأحد السفارات الأوروبية «هيلموت باوخ»، وهو من أم يهودية، ليكتشفوا بعد متابعةٍ وتدقيقٍ أنه مَن يتولى عملية إرسال الأفلام والمعلومات إلى خارج مصر مستغلًا حقيبته الدبلوماسية لأغراضه الخاصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبِتَكَشُّفِ كل الخيوط تم القبض على كل أفراد الشبكة، والتحفظ عليهم دون أن يُعلن عن الخبر، ليتم السيطرة على «موسى» كي يستمر في إرسال خطاباته إلى الموساد، بعدها كُشف عن كل عملاء الشبكة واحدًا تلو الآخر، حتى انتهت العملية وتم الإعلان عنها، بعد عام ونصف، ليكتشف الموساد مثله مثل غيره حقيقة «سمير الإسكندراني»، وكيف تواطأ مع المخابرات المصرية ضدهم.

هددوا «سمير» بالانتقام عن طريق تصفية شقيقه سامي، مما أسقط قلبه بين قدميه، فشقيقه سيدفع ثمن مغامرة شقية لم يكن يستوعب وقتها مدى خطورتها، ذهب إلى مبنى المخابرات ليبلغهم رسالة التهديد، ليفاجئوه بأنهم توقعوا ذلك لذا أعادوا شقيقه من النمسا، كانت فضيحة خديعة الموساد مدوية وسط العالم، مما جعل مدير المخابرات الإسرائيلية هرطابي يستقيل ويعتزل بعيدًا، في الوقت الذي كان «سمير» يستمتع ببطولته مع رئيس الجمهورية الذي دعاه لتناول الطعام في منزله الخاص وسط عائلته، لينال مكافأة خاصة ولقب «الثعلب المصري».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علاقات مفيدة -سهام-

أخيرًا أنهيت قصة «سمير الإسكندراني»، يمكنني الآن التفرغ لكتابة القضايا الدولية، سيكون الشهر الثاني خاص بطرح قصص قضايا تمس أمن دول أخرى لأجدد ولا يمل قرائي، بدأت رحلة البحث عبر الإنترنت حتى وجدت ضالتي مجموعة أخبار عن قضايا تجسس تشوب إحداها الغرابة بسبب قناعات المتهمة فيها، فأرسلت الأسماء ونبذة عن كل قصة لأحد أصدقائي على موقع الفيس بوك، مغربي أستاذ في جامعة نيو جرسي، هاجر إلى أمريكا وهو في السابعة عشر، وعدني بمحاولة تجميع ما يستطيع عن هذه الشخصيات، في مقابل أن أستقبله هو وزوجته في القاهرة، فلقد قررا أن تكون إجازتهما لهذا العام في مصر، وعلي أن آخذهما في جولة سياحية مميزة، تم الاتفاق واعتبرت صفقه منفذه بعد حين، أخبرني أنه سيبدأ من الصباح مستغلًا إجازته الأسبوعية.

ثم أرسلت رسالة ثانية إلى صديق عراقي يدعى «جاسم»، ضابط في جهاز الشرطة الداخلية وأبرمت معه نفس الاتفاق، لكنه أخبرني أنه سيزور مصر بعد شهر من الآن وحيدًا دون زوجاته الثلاث، كما يريد أن أذكر اسمه مع توجيه الشكر لمساعداته؛ فوافقت.

حفظت كل ما توصلت إليه من البحث في مجلد خاص باسم كل قضية على اللاب توب، ثم ذهبت إلى النوم لأريح عينيي وجسدي.

في اليوم التالي استيقظت وكلي نشاط تناولت قطعه حلويات مع كوب كبير من القهوة الفرنسية، ثم بدأت تصفح بريدي حيث فوجئت بموافقة عدة مكتبات كنت أراسلها عبر الفيس بوك كي تعرض كتب الدار لديها حسب ما يتم اختياره من القائمة التي أرسلتها إليهم، مقابل خصم يختلف حسب طريقة المحاسبة، أغلبهم طلب الدفع بعد البيع وبالتالي خصم ٤٠٪ وليس ٥٠٪ للدفع الفوري، يا لِحَظي لا كتابة لأيام بهذا الشكل.

اعتمدت على الله، قُدْتُ سيارتي وتوجهت إلى الدار وبدأت تجهيز الكتب مع «مي» السكرتيرة وعامل البوفيه -على اعتبار أن هناك بوفيهًا في الأساس- أنهينا تصنيف وتجميع الكتب حسب رغبة كل مكتبة في تمام الرابعة، ثم دخلت إلى مدير الدار لأطلب مبلغًا للانتقالات، بكل بساطة أخبرني لديك سيارتك فلماذا تريدين مقابل انتقال؟ استغلي سيارتك!!

عندما أجبته هل تريد مني التنقل بين أربع محافظات أقربهم تبعد ساعتان عن القاهرة بسيارة فيات ١٢٨، يمكننا إرسالهم بالشحن وتقوم كل مكتبة بتصوير مقر المكتبة لنكون فكرة عامها عنها وكيفية تنظيمها، ثم تصور ما وصلها لنستغله في الدعاية والتسويق، كانت إجابته منطقية في نظري، وأكثر حنكة وتعقل عما توقعت فقد منحني خمسمائة جنيه على أن أحضر تذاكر الأتوبيس، وعدته بذلك وخرجت من مكتبه منشرحة الصدر مبتسمة الوجه.

حركت النقود أمام وجه «مي» التي ضحكت بهستيرية لقدرتي العجيبة على سحب ما أريد من مبالغ مهما كان السبب من المدير في كل مرة في حين تفشل هي في الحصول على مائتي جنيه فقط لإصلاح التكييف منذ شهور.

أخبرتها أنني سأبدأ من الغد، وبالتالي سأنصرف اليوم باكرًا لأنام كي أستطيع تحمل سفر يومين متتابعين ثم سآخذ الثالث راحة، لتعلق ساخرة، «يا بخت من كان النقيب خاله»، فأصلحت لها بل يا لقدر من يبتليه ربه بإدارة قسم التوزيع لديكم، ساعدتني في وضع الكراتين الأربع في السيارة مقررةً أن أحاول إنهاء التوزيع في يوم واحد وأرتاح يومين لأكمل كتابة قصصي، لم أخبرها أنني سأسافر بسيارتي، مَن يحتفظ بتذاكر الأتوبيس أساسًا!

قررت تمضية بقية اليوم لمتعتي الخاصة، توجهت إلى الجريدة وسلمتهم باقي قصص الشهر، ثم ذهبت إلى الكوافير لأغير تسريحة ولون شعري سأختار لونًا أحمر قاني، كما يمكنني الاستمتاع قليلًا بثرثرة زميلاتي الذاهبات للبحث عن جمالهن المدفون، كالعادة مرت الساعات هناك سريعًا.

تناولت عشائي في مطعم وسط البلد، معي خمسمائة جنيه فلمَ لا أدلل نفسي قليلًا!! طلبت كفته مشوية على الفحم وكباب وأرزً بالخلطة والمكسرات وكوبين من عصير المانجو، فلدي في الغد حرب سفر عمادها سيارتي الحبيبة.

اشتريت بعض المخبوزات أثناء تجولي في الشوارع دون هدف، ثم عدت إلى شقتي في الساعة الحادية عشرة، وخلدت إلى النوم سريعًا فلدي يوم حافل غدًا، لم أشعر بأي شيء حتى قمت فزعه على صوت المنبه يصرخ مُوَلْوِلًا في الساعة السادسة، يومًا سأصاب بنوبة قلبية بسبب النغمات المرعبة التي أختارها للمنبه كي يوقظني صباحًا، أخذت دُشًّا سريعًا وتناولت بعض من البيتزا الصغيرة والباتون ساليه مع كوب شاي مضبوط، ثم انطلقت في رحلة العذاب.

كانت محطتي الأولى إلى المنوفية والحمد لله كانت المكتبة على شارعٍ رئيسي قريبةٍ من طريق السفر، سلمت المدير الطلبية وقمت بتصوير المكتبة لنستخدم الصور في الدعاية للدار وأماكن توافر إصداراتها، ثم توجهت إلى الإسماعيلية ومنها إلى بورسعيد دعاني صاحب المكتبة إلى الغداء ثم تجولت معه سريعًا لأرى بلدة صغيرة ولكنها جميلة جدًا، يمكننا القول إن بورسعيد شارعان وحارة رغم أنها متمدنة وليست حارة نهائيًا.

كانت آخر محطة محافظة دمياط، قاربت الساعة على السابعة، الشوارع عجيبة مليئة بالبشر والكل يبدو عليه الجدية، طرق ملتوية ولكني لم أهتم فمن يجرب القاهرة لا يفرق معه أي مكان آخر، أغلقت زجاج السيارة منعًا لوصول تعليقات السائقين، ورفعت من صوت الأغاني، ليغطي على كل شيء.

أخيرًا، توصلت لمكان المكتبة سلمته الطلبية وقمت بالتصوير كالعادة واستلمت مبلغًا مقدمًا مِن قيمة الكتب، دعاني على العشاء فلم أرفض، أعترف أنني استغلالية للغاية فيما يخص الطعام، ثم تجولت قليلًا كي أشتري تشكيلة حلويات أتفاخر بسيرتها أمام أصدقائي وبأنني سافرت إلى دمياط واشتريت من حلوياتها الشهيرة، ثم تذكرت المدير فطلبت من البائع أن يجهز ثلاث علب وأن يضع مع كل علبة كيلو مشبك، سأهدي المدير واحدا يكفي أنه متكفل بكل هذه الرحلة، وأهدي الآخر لمي ومن معها في المكتب والثالث لي.

عدت إلى القاهرة في الواحدة بعد منتصف الليل، وصلت شقتي في الثانية توجهت إلى سريري رأسًا وخلدت إلى النوم بملابس السفر، لم أستيقظ إلا في الثانية عشرة ظهرًا، أخذت دُشًّا سريعا وتناولت

إفطاري ثم انطلقت إلى الدار منحت الحلويات إلى «مي» وأخبرتها أن تدخل واحدة منهما إلى المدير وتخبره أنني سافرت إلى دمياط وبورسعيد بالأمس واليوم سأسافر إلى المنوفية ومنها إلى الإسماعيلية، ولم أخبرها بأنني أنهيت التوزيع، وهكذا تفرغت لمدة يومين لكتابة الجديد.

قبل أن أنصرف اختلينا في جلسة نميمة أخبرتني فيها بحدوث مشكلة جبارة بين مدير الدار ومدير دار «ميروزا»، فكل منهما يتهم الآخر بسرقة كُتابه، ما زاد تأجيج نيران المشكلة أن مدير «ميروزا» يهدد بنشر تسجيلات صوتية للكتاب ومحادثات عبر الصناديق المغلقة لعالم الفيس بوك تحوي فضائحٍ تخص الجميع، ومحاولة العديدات من كاتباته السابقات إغوائه، اتهم الجميع بتعمد الإساءة إليه غيرةً وحقدًا على نجاحه، ومحاولتهم جميعًا تحطيم نجاحه وتشويه صورته بالافتراء على سمعته ونشاطه الثقافي، ومحاولة النصب عليه وسرقة أمواله ولكنه لم ولن يسمح لأي شخص مهما كان مركزه أو مكانته بترك علامات أصابعه على قفاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدت إلى شقتي وقمت بعملية تنظيف فلا أذكر متى قمت بهذا آخِرَ مرة، انتهيت في الثامنة مساءً وأزلت أطنان وجبال من المخلفات كانت في السابق تدعى طعام سريع، جلست لأستريح قليلًا ثم فتحت اللاب، وجدت أن «جاسم وإسماعيل» قد أرسلا صور تحقيقات صحفية، وتقارير تخص الشخصيات الذين أرسلتهم إليهما، بدأت القراءة بتأنٍ حتى أُكَوِّنَ صورة إجمالية وتفصيلية عن هؤلاء الأشخاص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-شريفة-

مرت سنوات كثيرة أحقق فيها كل ما أحلم به، نصيحة مجربة أوجهها لأبنائي ولزوجي «صبري» دائمًا، «الحياة فرص فانتهزها وإلا ضعت دونها»، فلقد كنت مهيأةً لانتهاز كل الفرص حولي واستغلالها بجهدي وتفكيري الخاص، لا أنكر وببعض المساعدة ممن حولي، لا زلت في الخمسين وأملك بمشاركة زوجي بالإضافة إلى مركز التدريب ومكتب الاستشارات افتتحنا معهدًا عاليًا خاصًا بالعلوم الهندسية عميده زوجي الحبيب، وآخَرَ لعلوم الحاسب، وباتصالات زوجي يتم الاتفاق على عميد يظل معنا في الغالب لثلاث سنوات تتجدد سنويًا ثم نختار عميدًا جديدا.

افتتحت دارًا صغيرةً للأيتام تتولى رعايتها دكتورة في علم النفس متخصصة في التعامل مع الأطفال والمراهقين، اختارت مساعديها والموظفين حسب معايير حددتها ليجيدوا التصرف في كافة المواقف التي سيتعرضون لها، أفادتني دار الأيتام كثيرًا في تحسين صورتي أمام الجميع، والتعرف بشخصيات مهمة في مجال العمل الاجتماعي وبالتالي باقي المجالات، كنا ننتقي مجموعة من الأطفال تسافر في بعثات تعليمية للخارج تحت رعاية وكفالة مهاجرين مصريين في العديد من الدول العربية والأوروبية، ساعدني ذلك بعدها على التعرف بشخصيات أوصلتني لجامعات وجهات أجنبية وقعت معها عقود تعاون مشترك، لنتبادل بعثات طلابية بين البلدين، وتلك تُدِرُّ عليَّ مبالغ طائلةً بلا حساب، وكله بالقانون.

أما فيما يخص زوجي العزيز، فتصلني أخباره من العيون المنتشرة لديه، وأعلم أن كل ما أفعله يصله فهذه ضريبة الغِنَى، يمارس زوجي سلطاته كاملة في إدارة المعهد الهندسي ويتابع معهد الحاسب الآلي حسبما اتفقنا كي لا تتعارض الصلاحيات، وأحيانًا يمارس ذكورته مع طالباته ولكنني أستطيع إصلاح الأمر قبل أن يتطور لأجده مرةً وقد تزوج من إحداهن، الجميل فيه أنه يتقى شري ويحافظ على أملاك أولادنا «ملك، شريف، جنة»..

نعم ثلاثة لم أخشَ على جمالي لأنني كنت أتابع مع أخصائية تغذية ودكتور تجميل، لم أحب إثارة مشكلة مع زوجي المحب للأطفال معلنًا أنها دليل حب الرجل لزوجته وحب الزوجة لرجلها، لا زلت أحرص على دراسة دوراتٍ لِتَعَلُّم لغاتٍ جديدة، ودوراتٍ تدريبيةٍ في فن التعامل، كما قلت فأنا أؤمن بمقولة «الحياة فرص فانتهزها» أطبقها منذ نعومة أظافري وأعلمها لغيري انتهزها.

دربتهم منذ الصغر على الحياة وأساليب التعامل معها، «ملك» تعشق الكمبيوتر والبرمجة، فافتتحت لها شركة خاصة وساعدتها على توقيع عقود عمل مع عدد من الجهات الخارجية مقابل نسبة من الأرباح، و«شريف» دكتور أمراض جلدية يعشق الجمال؛ لذا تخصص في مجال عمليات التجميل ومشتقاته، استفدت من عشقه هذا كثيرًا؛ فأنا أمه والأَوْلى بالاهتمام، أخبرني عن عملية تجميل بالليزر ليزيد اقتناعي أن مخترع الليزر يستحق جائزة الأوسكار وربما نوبل للسلام، بدونه ماذا كانت ستفعل امرأة مثلي مشغولة ليل نهار ولا فرصة أمامها للاهتمام بجمالها والحفاظ على رونقها لتظل وردة ندية في نظر الجميع..

بفضله حتى وإن استيقظت متأخرةَ لا أحتاج لوضع ماكياج فهو مُتكفل بالأمر لأبدو جميلة بل جميلة الجميلات، وردةً نَدِيَّةً كما نفرتيتي وكليوباترا، أجريت الشتاء الماضي عملية تنعيم كامل للجسد بحبيبات الكريستال الرملية، وعملية أخرى لَوَّنَت خدَّيَّ وشفتيَّ بِلَوْنٍ ورديٍّ مُحَبَّب، لكن الأفضل من وجهة نظري هو الوشم الخاص برسم الحواجب والكحل الثابت لعيني، لهذا لا أبخل على «شريف» بأي شيء يطلبه مني، فكل ما يتعلمه يعود عليَّ وأختَيْه بطريقة أو أخرى، افتتحت له مستشفًى كبيرًا فيها جزء مجاني بالإضافة إلى تشجيعه على إقناع بعض من زملائه للعمل معه في التخصصات الأخرى لتكون مستشفى شاملة، لم يجادلني في الأمر واقتنع برأيي ليسير على نفس الطريق الذي رسمته له بدقة.

أما الصغيرة «جنة» فتهوى الأزياء وتصميمها تعشق تصميم وحياكة كل ما هو غريب وجميل وعملي في نفس الوقت، تسافر مع فريق عملها للعديد من الدول لعرض تصميماتها، وعن طريق معارفي استطعت جلب العديد من عقود العمل لها لتسوق منتجاتها، بيني وبين أبنائي كيمياء خاصة تساعد على أن نتفاهم بلمحة عين، أخبرهم دائمًا بالمختصر المفيد لاجتياز الحياة، إذا لم تستطع إنجاز أمر ما فكل ما عليك أن تخبر الموظف المسئول «شوشو يسلم عليك» حينها ستفتح لك كل الأبواب المغلقة على مصراعيها، فللمدعو «شوشو» مفعول السحر أمام أي باب مغلق، أعاني من العديد من المشاكل بسبب منافسي وكارهي النجاح ولكنني كل مرة أتغلب على الأمر وأجتازه بنجاح والفضل يعود للمبدع المتجدد «شوشو».

لا سبيل للنجاة أو للآخرة لا تحلم! لا أمل، الآخرة! أية آخرة، انْسَها؛ كيف اعتقدت أنه يمكنك حيازة وتملك الاثنتين هكذا ببساطة في ماعونٍ واحد؟!

نصيحة ضياع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مولتي تشاوولد

أتعلمون مدى سوء أن تنتهي حياتك المهنية لخطأ غيرك؟!

هل جربتم تجرع الموت دون أن تناله وكأنما حرمت عليك الراحة؟

أتدرون كيف هو السقوط المدوي من أعلى السحاب وسط بئر من النيران؟ طلب مني ومن «أبراهام» كتابة قصة حياتنا وإلا تعرضنا لتعذيب أقصى لذا اضطررنا للإذعان للأمر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مولتي تشاوولد..

ضابط مخابرات إسرائيلي، والدي يهوديٌ إيطاليٌ حيث الانطلاق والعفوية بين مُتَعِ الحياة، وأمي هنغارية رمز للجمال والكمال، أفروديت ولكن وهي في زى الرهبان، قديسة هبطت على الأرض لتتزوج أبي وينجباني، أو هكذا كنت أعتقد أغلب سنين حياتي، حتى العشرين كنت أنهل اللذة على شواطئ بحر «الإدرياتيك» في مدينه «تريستا» كان كل شيء يسير بخير حال على وتيرةٍ واحدةٍ هي المتعة حيث السماء الصافية وكأنما هي قوادة تحثك للحصول على المزيد من المتعة بين أحضان النساء والفتيات العامر بهم البحر، لتفترش الرمال وتمارس الخلود على حُبِيَباته الصغيرة الممزوجة بروائح عطور مرتادات الشاطئ.

كانت الحياة تسير على خير ما يرام حتى بدأْتُ أتابع دعاية أرض الميعاد، الجنة المزروعة وسط بلاد الشرق، الدعوات المتتالية لنا نحن اليهود بالهجرة إلى أحضان الوطن الأم حيث رغد العيش، كانٍ الأمر مُغْرٍ للغاية، لكني كنت أخشى المغامرة رغم خوفي من التهديدات المُعَرَّض لها اليهود خاصةً بعد أفرانٍ الغاز وحرق ستة ملايين يهودي في ألمانيا، أحرقوهم هناك فماذا سيفعلون بنا هنا؟! حاولت إقناع والدي ولكنه رفض ترك أرض صباه وشبابه، فألغيت الفكرة حتى توفى، حينها فاتحت والدتي «رينالدا» في الأمر وأخبرتها عن الفرص المتاحة لنا هناك، وشهيتها بالمغريات المتوفرة هناك، «سنعيش في راحة ونعيم رينالدا» الجميلة المثيرة؛ فوافقَت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل الأحلام على أرض الواقع تختلف كثيرًا عما حلمنا أو توقعنا، دعنا نتجنب الحديث عن صدمتي في أرض الميعاد، لكنني لا أستسلم بسهولة لذا تطوعت للخدمة في جيش الدفاع الإسرائيلي بعد ملاحظتي أنٍ هذه الفئة هي الأكثر تميزًا، والأكثر سطوةً فهي النخبة المختارة، وهي السلطة، وهي الأكثر تبجيلًا بين المواطنين بعد رجال الدين والحاخامات، ركزت جهودي على إظهار أفضل ما عندي، فلن أرضى بالقليل، تعلمت العربية والعبرية خلال فترة وجيزة، وتعاملت بذكاءٍ مع كل ما يمر أو يعبر خلالي..

حتى تم اختياري للعمل في جهاز الأمن الداخلي «الشين بيت» وكان على إظهار كفاءتي أكثر وأكثر فبرعت في أساليب قمع المتمردين من المخربين العرب، وجودت أكثر بأن جندت بعض منهم لصالحنا سواء بالخديعة بعد أن أوهمه بأنني عربي مثلهم مهتم بإصلاح الشأن العربي، وأحيانًا أقنعهم

بإنجاز بعض المهام لصالح نصرة الإسلام، فالكل في سبيل جنة الرب مستعدٌ للتضحية بروحه، وآخَرين جندتهم بالابتزاز أو بتقديم مُغْرَياتٍ تناسب كل شخصية.

رجلٌ طحينيُّ البشرة بِعيونٍ زرقاء، أنفٌ شامخٌ يناطح آلهة الأولمب بكبرياء، وشِفاهٌ حَفَرَتْها حِسان شواطئ الإدرياتيك على مَهَل، شَعْرٌ بُنِّيٌّ وجسدٌ رياضيٌّ ذو قبضةٍ تعرف متى تحطم ومتى تضم بحنان، بالإضافة إلى بذلة عسكرية تفتح الأبواب الموصدة على مصراعيها، كنت كما مَلِكٌ تركع أمام قدَمَيْهِ الحِسان، طُوِّعَ كل شيءٍ لخدمتي فالنجاح يجلب نجاحًا، وأنا شخصٌ عاشقٌ للنجاح والتفوق، حتى كانت ليلةً قلَبَتْ كياني كما إعصار تسونامي، لم تترك شيئًا على حاله.

عدت من ليلةٍ صاخبةٍ نظمتها زميلةٌ كنت ضيف الشرف والمدعو الوحيد بمناسبة النجاح في مهمةٍ خاصةٍ كلفنا بها الجهاز سويا، كنت أخطط للمبيت لكن تلقت اتصالًا بمرض والدتها ونقلها بواسطة الجيران إلى المستشفى؛ لذا كان عليَّ العودة إلى المنزل، ستفاجأ والدتي ولكنها بالتأكيد ستفرح لأنني سأقضي معها الليلة ولن تبيت وحيدة..

دخلت المنزل فسمعت أصوات همسٍ وخرمشةٍ صادرةً من حجرة «رينالدا»، تذكرت والدة «رينا» وإصابتها بأزمة قلبية مفاجئة وكيف نقلها الجيران بعد أن سمعوا صوت تحطم صادر من الشقة، وعندما استطاعوا الدخول أخيرًا بواسطة مفتاح حارس البناية وجدوها مغشيًّا عليها على الأرض بجوار باب الشقة، أسرعت بالدخول لنجدة أمي ولكنني اكتشفت..

اكتشفت أن هذه الأصوات المنطلقة من فم سيدة في التاسعة والأربعين صدرت لأنها مع أحد الجيران، سائق يمني حقير احتل مكان أبي وقفز على ممتلكاته، ودنس ملاكي المتجسد في هيئة أمي، لمحتني فأبعدته عنها، وبمجرد أن رآني هو بجوار السرير خطف سرواله وهرب من المنزل تاركًا كل متعلقاته خلفه.

هل يجوز لنا قتل الأمهات عندما تخوننا؟ هل يمكننا ضربهم على الأقل لنشفي غليل صدمتنا فيهم؟ كيف استطاعت خيانتي وتحطيم تمثالها الرخامي داخل جدران قلبي؟! كيف تفكر في هذه الأمور بعد هذا السن ومع من؟ هذا الحقير؟! ويا ترى منذ متى وهي تفعل؟ لقد عرفتها عليه منذ.. منذ متى لا أتذكر متى؟! كيف استطاعت خيانة ثقتي؟!!

لم أنطق وهي لم تفعل، ظللنا في حالة سكون لعشر دقائق، ثم عندما هَمَّت بالحديث تركْتُها وانصرفْتُ، ظللت أتجول بالسيارة في شوارع «تل أبيب»، يا لكِ من قطعة خُطِفْتِ من قلب الجنة كما «لاس فيجاس» ولكن بتنظيم وترتيب أكثر، هل أخطأت عندما سكنا في بلد الشياطين هذه؟

في الصباح ذهبت إلى مقر عملي وقدمت استقالتي، وقررت العودة إلى «تريستا» والهجرة للأبد، قطعت كل صلاتي بإسرائيل وبأمي، لن أتزوج أو ارتبط بامرأة تخونني مثلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«مايك هراري» ضابطٌ في جهاز الموساد الإسرائيلي، هو مَن أعاد إيقاظي من غفوتي وسباتي، فبعد أن قررت الانكفاء على وجهي ونسيان الفترة السابقة كلها وشطب فترة إقامتي في إسرائيل من دفاتر سجلاتي، ظهر هو ليخبرني أنه يبحث عن ذوي الكفاءات والمخلصين من أمثالي لتدعيم أقسام

الموساد، رغم أنني لم أعْلِم أي شخص بوجهتي وقررت البدء من جديد، لا أنكر أنني أعْجِبْتَ بتصميمه على ضمي إليهم لكن مع هذا ظللت صامدًا على موقفي برفض العودة إلى إسرائيل حيث تعيش تلك الخائنة.

بعد أربعة أشهر جاء مرةً ثانيةً وجدد عرضه وعاجلني قبل أن أرفض بإخباري أن والدتي قد توفيت، الغريب أنني حزنت عليها خاصة بعد أن علمت أنها توفيت وحيدة، تخلى عنها النذل إذًا، ظل يلح في طلبه على عودتي والعمل معهم حتى وافقت، فأخبرني أنه سيضمني إلى أكاديمية الجواسيس، تخرجت منها بعد ستة أشهر جاسوس محترف باسم « روبرتو بيترو»، أشاد بي المدربون لإجادتي فنون التجسس والقتل بالإضافة إلى التنكر والتمويه والذكاء في الهرب من أي موقف.

زاد ثقتي في نفسي خاصةً بعد أن اكتشفْتُ قدرتي على مقاومة الألم وعلى تحمل التعذيب مهما بلغَت وحشيته وقسوته، مما عزز من مكانتي والثقة في إمكانية زرعي في أي دولة عربية دون الخوف من تعرضي للانهيار إذا قُبِضَ علي، اكتملت سماتي وصفاتي المؤهلة بوجهي ذو الملامح الطفولية المليئة بالبراءة والحنان، جاسوسٌ مثاليٌّ وتنبأ الجميع بوصولي إلى مركزٍ مرموقٍ بكفاءتي خلال فترة وجيزة في مجال التجسس وعالم الالكترونيات والاتصالات وتكنولوجياتها المتنوعة، خاصة بعد أن ساعدتهم على تطوير عدد من أجهزة اللاسلكي مما يستخدمها جواسيسنا في بث الرسائل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلقيت مهمةً جديدةً في العراق وتحديدًا مدينه بغداد العاصمة، كانت بسيطةً جدًا ولكن عليَّ إتباع الإجراءات المعتادة، فجهزت جواز سفري وحقيبتي وتأكدت من حفظي المهمة جيدًا واستيعابي المطلوب بدقة، وسافرت إلى روما وهناك تسلمت وثيقة السفر وتمت تغطية شخصيتي الجديدة كمندوبٍ لشركة انتراتيكو الإيطالية للمقابض، وسُجِّلَ اسمي في جميع الدوائر، فبالتأكيد ستحاول المخابرات العراقية السؤال عني في روما، بعد ترتيب كل شيءٍ سافرْتُ إلى مطار بغداد الدولي، عيب الدول العربية الروتين والرتابة أشياء قاتلة للإنسان العادي فما بالك بضابط مخابرات مثلي يحسب لكل خطوة ألف حساب؟!

تعطلت فترة أمام ضابط الجوازات مما أثار قلقي وهَيَّجَ مخاوفي، هل كشفوني؟! ماذا على أن أفعل الآن؟

أوه يا ربي؛ ربما يجب عليَّ الهرب والبحث عن مَخْرَجٍ؛ فالأمر يبدو الأمر!! في النهاية قررت سؤال الضابط بطريقةٍ عفويةٍ لا تثير ريبة مَن حولي، استجمعْتُ قوتي وجمودي وسألته لماذا هذا التأخير يا سيدي؟

فأجاب بِصَلَفٍ إنها إجراءاتٌ أَمنيةٌ لن تعطلني ولن تستغرق وقتًا كثيرًا، ثم أردف جملته بسؤال: كم مرة جئت إلى بغداد؟ معروفٌ عن الإيطاليين عصبيتهم فأبديت التذمر وأجبته بحدة: الزيارة الأولى، فأكمل ببرود ما هدف الزيارة؟ كنت أود أن أحرق دمه وأقول للمبيت مع نسائكم ولكنني قررت التحكم في أعصابي وأجبته..

أنا مندوب عن شركة أنتراتيكو للمقابض في روما جئت لمعرفة إمكانية إقامة جَناح لنا بسوق بغداد الدولي، ولكي أعرض إنتاجنا على بعض رجال الأعمال ممن اتفقنا معهم مبدئيًا بالفعل..

أتريد كشفًا بأسمائهم؟ حمدًا للرب بكل هدوء ومع ابتسامة أكثر هدوءًا ارتسمت فجأة على وجهه؛ وكأنما هي رسالة اعتذار سلمني جواز السفر مصحوبًا بأطيب الدعوات بالتوفيق وتكرار الزيارة؛ لذا شكرْتُهُ وغادرْتُ المطار سريعًا لأنهي مهمتي، استقلت تاكسي إلى فندق ريجنسي وسط بغداد حسب الحجز المسبق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحظت أن هناك سيارة ماسكوفيتش تتابعني، هل هم من زملائي للاطمئنان على العملية ولكنها بسيطة لا يعقل أن يكونوا هم؟! هل كُشِفْتُ وهؤلاء من جهاز المخابرات العراقي؟ ولكن كيف والعملية بسيطة هذه المرة لا تسترعِي الانتباه؟! أتكون هذه العملية هي القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقول العرب؟! ربما هو أحد أعضاء الشبكة هنا ويريدون ضمان أمني والتأكد من أنني لم أُكْشَف؟! ما كل هذا الرعب والتوتر؟

أشعر أن ضغط دمي مرتفع، كما أن درجة الحرارة هنا تخنق، كيف يتحملها هؤلاء الرعاع، تركت حقيبتي في مكتب الاستقبال وصعد بها العامل معي إلى الغرفة، والأفكار تموج في رأسي وتأكلني الهواجس كما فك مفترس، هل عليَّ الالتزام بحجرتي وعدم المغادرة حتى تأتيني أية إشارة أحدد منها خطوتي التالية؟

سآخذ دُشًّا دافئًا لعل أفكاري تهدأ وأستطيع تدبر أمري، لا.. لا أستطيع الصبر عليَّ كشف لثام الأمر سريعًا الوقت من ذهب لا سبيل لإضاعة أية ثانية، سيفٌ قد يقتلني حَدُّهُ أية لحظة، بدلْتُ ملابسي ونزلت سريعًا أبحث حول الفندق عن أية علامة تفسر الأمر، لم أجد السيارة الماسكوفيتش، هل كنت أتوهم؟! بالتأكيد هذا ما حدث أول مرة أتعرض لإرهاق سفرٍ هكذا، قررت أن آخذ جولةً أخرى كي يطمئن قلبي أكثر ثم أعود إلى الفندق لأرتاح.

وجدت إشارة تشير إلى شارع السعدون فتجولْتُ فيه ولمحْتُ فاترينة زجاجية لمحل قريب قررت استغلالها لمراقبة ما حولي، وقفت أمامها وتأكدت شكوكي هناك مَن يراقبني، تحركْتُ سريعًا واختفيت في مدخل أحد البنايات شاكرًا الرب لأنه مظلم، لحظةً ودخل شبحٌ خلفي واصطدم بي، أمسكت تلابيب قميصه وقررت أن أحطم رأسه بقبضتي وأنا أسأله لمَ تتبعني؟ فصرخ فزعًا «مولتي تشاو» ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابن الوز عوام..

«أبراهام موشيه» يهوديٌّ عراقي، وُشِمْتُ منذ صغري بالخيانة، وكيف لا ووالدي «موشيه» كان يهوديًا عراقيًا من أُمٍّ سورية وأبٍّ عراقي، كان أبي يتخذ من عمله في التجارة والاستيراد ستارًا يخفي خلفه نشاطه التجسسي وتزعمه لشبكة جاسوسية إسرائيلية تغطي العراق والكويت وسوريا، بدأ

نشاطه عندما تزوج من والدتي وسافر ضاحية «دوما» بالقرب من دمشق، تعلم دباغه الجلود وأصبح صاحب صنعه يجيد أسرارها.

كانت الأيام تسير على خير لمدة ستة أعوام حتى اغتصب طفلًا مسيحيًا أصغر من عشر سنوات، بدأت السلطات السورية تطًارده، فشددنا الرحال إلى بغداد ثانية وافتتح مدبغته الخاصة، كان يعيش مع الخوف من أن تقبض عليه السلطات في أية لحظة لتسلمه على السلطات السورية أو أن ترسل أسرة الغلام مَن يطارده للانتقام منه.

كانت أمور المدبغة تسير على خير ما يرام فأثري ثراءً فاحشًا لننتقل إلى فئة الأغنياء بعد فترةٍ وجيزة، حتى علِمنا أنه اتُّهِمَ باغتصاب طفلٍ آخَرَ بغدادي، لكنه استطاع إنهاء الأمر بعد أن دفع مبلغًا كبيرًا لوالد الطفل الفقير، غره الأمر فكنا نسمع الإشاعات عن أنه يمارس شذوذه مع عماله الصغار داخل المدبغة، حتى وجده العمال ذات صباحٍ طافيًا داخل أحد الأحواض المليئة بالمواد الكيماوية المستخدمة في الدباغة.

كنت في الثانية عشرة والوريث الوحيد مع أختي «ميسون» التي كانت في السابعة، لكن وللأسف جاءت الضربة من حيث لا ندري، باعت أمي المدبغة وهربت مع السمسار الذي أحضر لها المشتري، ربما اعتقدت أنها هكذا تنتقم من أبي وتجاهلتنا نحن أبناءها، اضطررنا للإقامة مع عمي وهو رجلٌ بخيلٌ إلى أقصى حد، مما اضطرني مع قسوة طباعه وغلظة تصرفاته إلى ترك المدرسة والعمل في ورشة سبك الفضة لدى تاجرٍ يهودي من معارف أبي، أما «ميسون» فلقد وفرت على عمي وجود خادمة تساعد زوجته بعد أن حولوها إلى خادمةٍ تعمل مقابل طعامها.

كان الجميع يعيرونني بين الحين والآخر بأبي وشذوذه، وهرب أمي خلف متعتها الخاصة، ثم بعمي وبخله فقررت أن أكون من أصحاب الثروات مهما كلفني الأمر، فمارست هوايتي الأثيرة سرقة أجزاء من الفضة وهي خامٌ قبل أن تُسْبَكَ ويتم وزنها، بهذه الطريقة لا يمكن أن يضبطني أيًا كان أو يثبت عليَّ القيام بالسرقة، صحيح لم توفر دخلًا أعيش من خلاله ولكن بعد فترة يمكنني بيع ما أخزنه لأُكَوِّنَ ثروة.

في الثامنة عشر كان عمي لا زال على سخطه وتبرمه من وجودي وأختي معهم، يزداد بخله كل يوم أكثر وأكثر مكتفيًا بأنه يوفر حجرةً صغيرةً منعزلةً في منزله لأبيت فيها تحتوي على هيكل دولاب ملابس وسريرٍ واحدٍ لكلينا، دخلي حينها كان مثلي نحيل وضعيف، لا يوفر أي فرصة لمصادقة فتاة أو ممارسة مراهقتي بطريقة طبيعية وسط الشباب.. هل أخبرتكم أن «ميسون» بيضاء بعيون عسلية كحيلة، شعرها ذهبيٌّ طويلٌ ذات جسدٍ كالحرير، لمستها تُسْكِرُ دون خمر، لم أستطع المقاومة وهي لم تمانع كانت من النوع الذي نومه ثقيل لا يوقظه انفجار قنبلة.

حتى عندما استيقظت ذات ليلة لم تنطق ربما لأنني من يمنحها جزءًا من أجره كل فترة، أو ربما لأنني أشتري لها كل فترةٍ ملابس جديدةً وبعض الحلوى، أو ربما لأنني مَن أمنع عمي من ممارسة عنفه عليها هو وزوجته وأخفف عنها أعباء المنزل أحيانًا، أو ربما لأنني أخبرها دومًا رغبتي في أن أصير غنيًا ذات يوم وأنني أسعى لتحقيق هذا سريعًا، ظللنا لسنوات نمارس الحب، كنت البادئ دومًا حتى كبرت وصارتً مراهقة، حينها فهمت واستيقظت أنثاها فتجاوبت معي لنصير عشيقين.

جاء وقت تحقيق الأحلام، هربنا إلى البصرة مع كنزي الصغير، صندوق من خام الفضة جمعته على مدار عشر سنوات، افتتحت مسبكي الخاص وبدأت في تكوين سمعة حسنة وسط التجار، لأصير بعد أربع سنوات في البصرة من أغني أغنيائها، وتتحول «ميسون» في سن العشرين إلى فاكهة دمشقية تثير كل مَن حولها جنونًا بها كما أمي، لم أحسب حساب هذا ولم أكن اعتقد بالأمثال العربية وكما يقولون «اكفي القدرة على فمها تطلع البنت لأمها» حتى هربت، بحث عنها وعلمت أنها هربت مع جار لنا إلى الشمال، تركتني وحيدًا أعاني الحرمان من العائلة ومنها، سلبتني حبي وقلبي، كنت أسهر وأحاول البحث عن ما يسعد قلبي حتى تعرفت عليها.

«راحيل» فتاة شقية ذات ملامح عربية ورغم عدم تشابهها من أية ناحية من حبيبتي «ميسون» إلا أنها استطاعت أسر قلبي، وطرد معاناتي بعيدًا، تزوجْتُها وبعدها علِمْتُ أن والدها يعمل لحساب الموساد عندما طلب مني أن أعمل معه لم أمانع طالما الأمر مربحًا كما أخبرَتني زوجتي، مررت بمجموعة من الاختبارات والدورات التدريبية، اجتزتها كلها نجاحًا، وانتقلت إلى بغداد بعد تصفية أعمالي وبيع كل ما يربطني بالبصرة لأستطيع ممارسة مهامي ببساطة.

افتتحت مكتبًا للتجارة في شارع سعدون، واستأجرت منزلًا كبيرًا يليق بمكانتي الجديدة، وقررت تَعَلُّمَ الإنجليزية فالتحقت بأحد المعاهد الخاصة في بغداد، وهناك تعرفت بشوالم يهودي يعمل كمترجم للغة الروسية، وكثير السفر إلى موسكو بصحبة الوفود الرسمية للدولة، مما وسع من علاقاته معَ ذوي المناصب الحساسة والمهمة في الدولة، كان دائمًا يجيء محملًا بالسلع والرفاهيات الروسية معتمدًا عليَّ في تصريفها، لم أجنده بالابتزاز بل كان الأمر بسيط جدًا، شخصًا ثرثارًا كان يحكي أسرار سفرياته وتفاصيل ما يدور بين الوفد العربي ونظيره الروسي عندما يثمل، لم يخطر على باله مطلقًا أنني أستفيد من هذه الأخبار، أو أنني أسجل له ما يثرثر به، حتى كانت ليلة حاولت فيها الاستقصاء عن أمر محدد فتغير وجهه وارتبك وحاول التملص مني، فأخبرته أنني أعمل مع المخابرات الإسرائيلية وأن هذا واجب قومي وديني تجاه إسرائيل واليهود، علينا القيام به لا التملص، فحاول التخلص مني والهرب فعاجلته بأنني أسجل له كل ما أَخْبَرَني به سابقًا..

هنا يمكنكم القول أنني ابتززته، داومت على ابتزازه كي يستمر في تعريفي بأشخاص جدد، فعرفني على مهندس يهودي يعمل في أحد مصانع الأسمنت في بغداد، كان يتردد على منزلي مع «شوالم»، ثم اتفقت مع «راحيل» على مشاغلته فبدأ يأتي منفردًا، كانت تجذبه إلى بحرها دون أن تجعله يرتشف أية قطرة، كانت محترفة في التعامل معه تجذبه وتبعده في الوقت المناسب، لعبت بأعصابه وحيرته معها، حتى ملكت تلابيب عقلة فاستسلم لها ورفع راية الخنوع، وعندما طلبت منه معلومات عن المواقع العسكرية التي تتسلم حصص أسمنت من مصنعه أخبرها بكل شيء، منحته مقابل هذه المعلومات أربعمائة دينار وعندما لاحظَت صدْمَتَه بدأت تشرح له الأمر وتجذبه إليها والى التجسس ببراعة، واستطاعت بسحرها ضمان ولائه لها فكانت المفاجأة أنه أصبح يأتينا بالمعلومات قبل أن نطلبها حتى، ورافضًا أي مقابل إلا الوعد بالهجرة إلى إسرائيل في أقرب فرصة وتوفير فرصة عمل مناسبة له هناك، وكانت هذه نقطة ضعفه التي لعبنا عليها لفترة طويلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان علينا التوسع أكثر والامتداد نحو الكويت، لذا قمت باستغلال مكتبي التجاري وشحنْتَ برتقالا بواسطة سيارة نقل مجهزة ببراد، كان السائق «خازن» مسلمًا سوريًا من السويداء عاشقًا للخمر والنساء، متزوجًا من سورية في درعا، وأخرى عراقية في المقدادية، والثالثة إيرانية في كرمشاه، شخص عربيد عن حق، مشهور بِاسم «شاخص» لأن عينيه شاخصتين دومًا، قررت استغلال طمعه وعشمته بامتلاك براد مثل التي يقوم بقيادتها إذا تعاون معي وجلب معلومات من البلاد المختلفة التي يمر عليها، الطمع مفيد؛ لقد أشعل حماسة وعند زيارته لزوجته السورية حصل على معلومات تخص التحركات العسكرية السورية على الجبهة، وبعض القواعد الجوية التي تطورت منشآتها وتحصيناتها، صادَقَ أحد المتطوعين في الجيش السوري من أقرباء زوجته، واستطاع بواسطة الهدايا المختلفة التي يمنحها إليه، أن يتعرف على أسرار هامة، تمس أمورًا عسكريةً روتينيةً ويومية، أخبَرَني بها بكل دِقَّةٍ لذا منحْتُه مَبلغًا كبيرًا مكافأةً على نشاطه الملحوظ والمميز.

وظف «خازن» جهوده واستطاع شراء ذمم بعض المقيمين في الكويت، ليحصل على معلوماتٍ دقيقةٍ عن أنواع الأسلحة المتطورة ومخازنها، وعدد المنضمين في الجيش وحتى عدد الطيارين وعدد الطائرات، استطعت عبر «خازن» وغيره من فرض سيطرتي على دول الخليج العربي ليكون لديَّ ملفًا كاملًا عنهم عسكريًا واقتصاديًا وحتى تجاريًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد توسع نشاطي قرر الموساد حمايتي خاصة من نفسي خوفًا من أن أغتر فأسقط، لذا تم تدبير تدريب جديد لرفع حسي الأمني وزيادة كفاءتي ومهارتي التجسسية والأمنية، فسافرت إلى عبادان وهناك كان ينتظرني خبيران من الموساد أحدهما يدعى «روبرتو بيترو» إيطالي الجنسية كما أخبَرَني، ظللت معهم تسعه عشر يومًا، تدربت فيها على فرز المعلومات وتنقيحها وتنقيتها، وتدربت على كيفية السيطرة على الكم الهائل من العملاء الذين يعملون معي، وكيفية زيادة ولائهم إلى إسرائيل، ثم دربت على كيفية إرسال الشفرات عبر جهازٍ لاسلكيٍّ متطورٍ منحني إياه «روبرتو» مع راديو لاستقبال الأوامر على هيئة راديو ترانزستور حديث علمت أن قيمته تتجاوز العشرات من آلاف الدولارات، بالإضافة إلى مكافأة سخية جدًا وهدايا خاصة إلى راحيل أعجبتها للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عدت إلى بغداد أرسلت أول رسالة لطمأنه الموساد على وصولي سالما، كانت تحتوي على سلامة الوصول مع البضاعة وأن زوجتي ترسل تحياتها؛ تلقيت ردًا يفيد الاستلام والتمنيات الطيبة بالتوفيق؛ لذا بدأت على الفور في الاتصال بأعضاء شبكتي للحصول على معلومات جديدة محددة، مع منح مميزة من آلاف الدنانير العراقية لتيسير الحصول على مبتغانا من عملائهم، بعدها تلقيت شكرًا وثناءً من الموساد على تفانيَّ في عملي، كان كل شيء يسير على خير ما يرام بهدوء حتى قابلتها..

«ميسون»، مرت كطيف لطيف على قلبي في ليلة صيفٍ حارة، خبطت طرف السيارة وأنا أقود في أحد ميادين الموصل، لم أصدق أنني أقف وجها لوجه أمامها، حتى هي فعلت ثبتت في مكانها للحظات ثم حاولت الهرب وسط الزحام، غادرت السيارة وأسرعت خلفها، لتمر بي حياتي السابقة

وكم السعادة التي كنت أحظى بها بين أحضانها، أخيرًا وصلت إليها وأمسكت بذراعها كي لا تفلت مني ثانية.

لم أستطع الغضب منها أفشت عيناي كم أعشقها لأبث لها كل مشاعر الشوق والحب الذي يحرق قلبي، وطلبت منها أن تأتي معي إلى السيارة فوافقت على مضض وهي ترتعش، لُمتها كثيرًا وشكوت لها ما عانيته في غيابها، حتى هطلت الدموع نهر من عيني، لكنها ظلت تردد أن عليَّ نسيانها لقد تزوجت «مسعودا» جارنا وأنها سعيدة مع زوجها، ولديها طفلان وفي انتظار الثالث..

أضافت أن ما مضى كان شيء انتهى علينا قبره، أوصلتها لمنزلها ونزلت معها كي تحضر حقيبتها والأولاد وتأتي معي، ظلت ترفض وترفض فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أركلها وأنهال عليها ضربًا وسط صراخ طفليها، وفي النهاية استسلمت أنا ولكنني طلبت منها حقي فيها وتعويض عن سنين الغياب فوافقت بعدما يئست من انصرافي قبل حضور زوجها كي لا يكتشف ماضيها الشائن معي، وهكذا ارتويت حتى ملأت روحي منها ثانية، وأخبرتها ألا تهرب وألا تحاول وإلا ستندم لأنني سأزورها بين الحين والآخر، أخبرتها أن تكون مستعدة دائمًا للقائي.

بعدما انصرفْتُ من منزلها استوعبْتُ فكرة أنني تفصلني عنها أميالٌ وأميالٌ فعدت إلى بغداد مكدرًا، حيث وجدْتُ «راحيل» تعاني بشدة آلام الشهر الأخير من حملها الأول، ظلت على هذا الحال لأسبوع ثم نقلتها إلى المستشفى فجرًا، لتلد الجنين ميتًا، وبعد ساعات لَحِقَتْهُ بسبب حمي النفاث، لتتركني وحيدًا مرةً ثانيةً كما فعلت «ميسون»، لا أشعر بالرغبة في «ميسون» مرة ثانية ولا أريد العمل، فقدت شهيتي لكل شيء، وبدأت أشعر بالضعف والوهن والعجز، فقررت إرسال رسالة أخيرة عبر اللاسلكي كتبت فيها:

«دوف: أَمُرُّ بظروفٍ نفسيةٍ معقدةٍ.. لا أستطيع العمل.. لن أكون ذا نفعٍ منذ الآن.. ابعثوا قائدًا جديدًا.. سأنتظر ردكم بلا أوامر جديدة في الميعاد شالوم»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علمت بعد ذلك من طباطباني أن الجميع وجم عندما قرأوا الرسالة، شكوا في القبض عليَّ ولكن صحة الرموز السرية نفت الأمر، لذا لمحاولة استيعاب الأمر أرسلوا إليَّ رسالةً مشفرةً مغلوطةً فجاءهم ردي سريعًا بإعادة البث لعجزي عن فك رموزها، فاطمأنوا إلى عدم القبض عليَّ من قِبَلِ جهاز المخابرات العراقي، وقتها كنت قد استوعبت أنهم ربما ارتابوا بشأني بسبب الرسالة فأرسلت أخرى أطمئنهم عليَّ وأطلب قائدًا جديدًا مرةً أخرى لعدم رغبتي في العمل ثانيةً.

بعدها بأيام قليلةٍ أرسَلوا إلى عميلٍ لهم يعمل في طهران يُدْعَى «طباطباني حبرون» تسلَّلَ بأوراقٍ مزوَّرةٍ بِاسم « رضائي عبد الرضا» إلى العراق، لا أنكر أنه بارعٌ جدًا استطاع إعادة البهجة إلى قلبي، والرغبة في الحياة، أعاد إليَّ توازني، أقنعني بالاستمرار في العمل فلا يمكنني التنازل عن كل ما حققته ووصلت إليه ببساطة هكذا، على الأقل لنصرة إسرائيل بعد انتصارها في حرب العرب عام ١٩٦٧ بما يضعها تحت طائلة الرد العربي أية لحظة واحتياجها إلى دعم أبنائها المحبين، سألني هل تريد أن تشاهد القضاء عليها وتدميرها لأننا قصرنا في حقها وقت محنتها؟ وعدني بعد أن تنتهي هذه

الفترة أن أنتقل للإقامة في إسرائيل وابدأ مِن جديدٍ حياةَ رغدةَ أستحقها عن جدارة، لكن بعد الانتقام من العراقيين الذين أمدوا العرب بالسلاح والذخيرة لضرب إسرائيل في مقتل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت الأيام بهدوءٍ حتى أرسلْتُ آخِرَ رسالةٍ إلى تل أبيب وأثناء صعودي إلى سطح المنزل لإخفاء اللاسلكي زَلّت قدمي على السُّلَّم، فتهشم الجهاز لتتبعثر أشلائه أمامي، لملمتها سريعًا فزعًا، واضطرت إلى كتابة رسالة سريعة بالحبر السري إلى الموساد عبر مكتب أثينا، وصلتني رسالة تفيد ذعرهم مما حدث وقرارهم إرسال الضابط «روبرتو بيترو» لإصلاح الجهاز المهشم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«مولتي تشاو» كانت هذه هي كلمة السر التي أنقذت «أبراهام» من قبضتي الهادرة، فذهبت معه إلى مكتبه القريب من المكان، لم ألاحظ وجود مراقبةٍ أخرى تختلف عن مراقبة «أبراهام» ولم أنتبه لسبب وجود سيارة «فان» سوداء تحتوي أجهزة تَنَصُّتٍ تخفيها بستائر في الجوار، لم أعلم أنكم ارتبتم فيَّ منذ وصولي إلى المطار وتتبعتموني وبالتبعية راقبتم «أبراهام» لأنه يراقبني، ورغم عدم علمي أن مكتبه مزروع بأجهزة المراقبة إلا أنني لتوخي الاحتياطات الأمنية أدرت جهاز التشويش، لم ألاحظ طيلة تسعة أيام مرت وأنا أصلح الجهاز طواف عربة تتبع الذبذبات اللاسلكية وكانت هذه سقطتي القاتلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقرير جهاز المخابرات العراقية..

بينما نراقب مكتب «أبراهام» خاصة بعد التأكد من تتبعه للشخص المشكوك في أمره والتأكد من وجود علاقةٍ متبادَلة، لم نصل إلى أي شيء خاصةً مع التقرير الذي جاء من روما يفيد أنه شخصٌ إيطاليٌّ وبياناته كلها صحيحة، كنا نسير خلف أحاسيسنا وهي في أغلب القضايا تكون مصدرًا موثوقًا جديرًا في الثقة به، استمرت المراقبة خاصة وأنهم لا يخرجون إلى أي مكان آخر ويسهرون لفتراتٍ طويلةٍ في المكتب.

وسط مشاعر مضطربةٍ مليئةٍ بالقلق والخطر، ألتقط جهاز كشف الذبذبات اللاسلكية إشاراتٍ متقطعةٍ لا تكتمل، تبث لاسلكيًا من منطقة السعدون، فعاجلنا أحد الخبراء المصاحبين لفريق المراقبة صارخًا هذه تشبه إشارات جهاز لاسلكي معطل، يتم إصلاحه وتجربته، على الفور تواصلنا مع الإدارة التي أصدرت أوامر علينا بمداهمة المكان، كانت المفاجأة كما توقعنا..

وجدنا «روبرتو» منهمكًا في إصلاح اللاسلكي، و«أبراهام» يقف على مسافةٍ يشاهد ما يفعله، صُدِمَ الاثنان فانقض عليهما رجالنا وكبلوهما، اقتيدا إلى السيارة ثم غُمِّيا أثناء نقلهما إلى مبنى المخابرات، حيث جرى استجوابهما

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان «أبراهام» مهزوزًا ويبدو عليه التوتر والقلق فانهار سريعًا واعترف بكل شيء، أما «روبرتو» فالتزم الصمت رغم كل ما وقع عليه من تعذيبٍ، وتجويعٍ، وضربٍ، وتعذيبٍ نفسيٍّ بالنوم على

أرضيةٍ مغطاةٍ بالماء.. إزعاج بنقاط المياه المتساقط داخل دلو فارغ..، صمد وقاوم لسبعة أيام متصلة حتى استخدمنا أسلوب الإيقاظ الفجائي عندما ثقل جفناه واستسلم أخيرا للنوم، فاعترف وهو واعٍ بشخصيته الحقيقية وأنه يعمل مع المخابرات الإسرائيلية ويُدْعَى «مولتي تشاوولد» ولكنه لم يأتِ للتجسس أو لأي مهام تخريبية هو فقط جاء لإصلاح جهاز اللاسلكي الخاص بالعميل «أبراهام» ومع بعض الضغط اعترف أن الشبكة تتكون من ٣٦ جاسوسًا.

لذا عدنا لاستجواب «أبراهام» ثانيةً فاعترف بأكثر من كونه جاسوسا، اعترف هذه المرة بأسماء شركائه وجنسياتهم، «يهود عراقيين وإيرانيين وإسرائيليين»، تم انجاز التحريات عنهم وفي أقل من أربعة أيامٍ تم إلقاء القبض على كل مَن ذَكَرَ «أبراهام» اسمه وكل مَن شككنا في وجود علاقة بينهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أظن رجال المخابرات أقوي من ذلك فالغبي «روبرتو» سقط سريعًا وانهار معترفًا بكل ما يعرفه عني وعن مجموعتي مما أجبرني على الاعتراف بكل التفاصيل، كنت آمل أن أستطيع ملاعبتهم لبعض الوقت حتى أجد وسيلةً للهرب أو يجد الموساد مَنْفَذًا يهربني من خلاله دون أن تتضرر الشبكة التي تعبت حتى كونْتَها، وها هي قد ضاعت بسبب ضعف هذا الأبله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تسبب في أن تُحال إلى المحكمة العسكرية العليا، بدلًا من القضاء العادي، سمعت أحد السجانين يقول إن هذه أول مرة يُحال إلى القضاء كل هذا العدد من الجواسيس يتبعون شبكةً واحدةً لا أنكر شعرت ببعض الفخر لم يفعلها غيري ولولا سوء الحظ وهذا الضابط غير الماهر لكنت لا زلت بالخارج أمارس نشاطي بكل أريحية.

كنت أصلي للرب لينجدنا ويجد الموساد تسويةً مناسبةً؛ خاصةً بعد الحكم بالإعدام علينا جميعًا في صيف سبتمبر ١٩٦٨ داخل بغداد، وبدأ تنفيذ الحكم تباعًا في أعضاء شبكتي، لم تفارق الكوابيس ليلي نهاري كلما غفوت استيقظت على صراخي بعد أن أشاهد مقتلي مرةً رميًا بالرصاص ومراتٍ شنقًا حتى بزوغ فجر يوم وجدت أحد الضباط يأتي ليصطحبني مع عدد من مجنديه متحديًا بابتسامته ثقتي في مساندة الموساد ليزيد رعبي قائلًا:

هَلُمَّ، فلقد حانت النهاية وآن أوان قطف ثمار شجرتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إدبار الزمن -شريفة-

«إذا أَدْبَرَ الدَّهْرُ عَنْ قَوْمٍ كَفَى عدُوَّهُم»، ويبدو أن الدنيا قررت منحي ظهرها، فالحذر لا يمنع القدر، وكما يقال «ما طار طيرٌ وارتفع إلا كما طار وقع»..

كانت الأيام تمر سريعًا تمنحني معها هدايا يومية بالنجاح وتحقيق الأحلام، صرت «شريفة» هانم مَن لا تُرَدُّ لها كلمة، كل يوم أرتقي سُلَّمَةً تِلْوَ الأخرى، أبنائي في ظهري يدعمونني وأدعمهم، لتتصدر صورنا أغلفة المجلات المصرية والعربية، الجميع يتهافت للحصول على موعد معي، وقتي ثمين فكل لحظة بثمن، عندما علمت بوفاة شقيقتي وزوجها في حادث حزنت قليلًا، لقد أثر فيَّ الأمر لكنه لم يأخذ حَيِّزًا أكبر من قدره فلدي حياة أحافظ عليها، لكنها كانت فرصة للتعرف على ابنتها، فتاة ساذجة رغم الذكاء البادي في عينيها، عرفتها بأولادي وأخبرتها أن تأتيني وقتما شاءت، لكنني لم أقابلها بعدها ولم أهتم بالتقصي حولها لديها عمٌّ يهتم لأمرها.

سنوات وسنوات تتوالي لا أرى فيها غير نجاحاتي أنا وأولادي وثرواتنا التي تتضاعف، حتى جاءت ساعة اسودت الدنيا فيها، هاجمت قوات الأمن المركز والمعاهد وأغلب مقار عملي لتقلب كيان كل ما فيها، قُبض عليَّ في عقر داري داخل المعهد مع «صبري» أمام كل الموظفين أثناء اجتماع سنوي للتباحث عما نُفِّذَ وما نطمح لتنفيذه، علمت من الضابط أنني متهمه بالتزوير والتخابر والاتجار بأعضاء البشر، رأيت نظرات الشماتة تنطلق من عيون من حولي متشفية رغم محاولاتهم مداراتهم ولكنني أجيد قراءة العيون كما أجيد الحكم على الأشخاص، هؤلاء الملاعين سأريهم بعدما أخرج من هنا أبشع العقوبات وسأنغص عليهم معيشتهم قبل أن أطردهم شر طردة وأبدلهم بغيرهم.

أربكني هذا الأمر المفاجئ فكل أموري مُرَتبةً قانونيًا وأمنيًا فأنا لا أبخل على مَن يساعدني في هذه الأمور، تحركت معه واستغللت فرصة وجودي في البوكس وطلبت شريف ليختفي مع إخوته حتى أفهم ما يحدث، نظرت إلى زوجي الهلوع فانقبض قلبي بسبب وجهه الأصفر وجسده المرتعش، وصلت لأجد محامينا موجودا، تحدثنا قليلًا ولم يطل انتظارنا خارج مكتب وكيل النيابة، من حُسْنِ حظي أنه استدعاني أولًا، تنفست بعمق وشجعت قلبي ودخلت كما الأبطال أداري قلقي وتوجسي خيفةً مما يحدث، تاركةً «صبري» خلفي يكاد يبكي وينوح كما امرأة ثكلى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نادى العسكري اسمي فدخلت مع محاميَّ، وكيل النيابة يبدو شخصًا وسيما، واثقًا مِن نفْسِه، يحاول إظهار الوقار والدبلوماسية، وجهه جامد يبدو أنه بارد ردود الأفعال، أجلسني أمامه، تحدث المحامي قليلًا فبدا متفهمًا للوضع، ثم بدأ التحقيق..

أستاذة «شريفة» حضرتكِ متهمة بتقديم الرشوة لموظف عام للإخلال بمقتضيات واجبه الوظيفي لأجل نيل شهادة معادلة الشهادة الممنوحة من معهدكِ بشهادة البكالوريوس رغم عدم مطابقته للشروط التي فرضتها وزارة التعليم العالي على المعاهد الخاصة، والتزوير في الأوراق الرسمية المقدمة للحصول على هذه المعادلة.

وشكاوى من بعض الموظفين يتهمونك بفصلهم دون سبب ولكن فقط لأنهم طالبوا بالتأمينات الاجتماعية وهذا حقهم الذي شرعه لهم القانون، بالإضافة إلى الأدلة التي تدينك بالتخابر مع جهاتٍ أجنبيةٍ وإرسال بعثاتٍ طلابيةٍ بهدف تدريبهم على الإضرار بصالح البلد، وأخيرًا الاتجار في أعضاء البشر، فما قولك فيما هو منسوب إليك؟

تذكرت أسلوب حياتي، فلتت مني ابتسامة وأنا أداري ما أفكر فيه، ماذا لو قلت له:

«شوشو» متعارف عليها بين الجميع، أقصد يا فندم كنت شابةً صغيرةً وفي هذا الزمن أعتبر بطلة كبيرة، سيدرس يومًا كيف وصلت لمكانتي الحالية دون أن يساعدني باشا أو غفير؟! قد يكون هناك مَن سقط أثناء الطريق صرعى حرارة شمسي أو متجمدين من برد فعلي لكن ما فعلته يعتبر إنجازًا في هذا الزمن.

بدلًا من ذلك وضعت ساقًا على ساق، واعتدلت في جلستي قبل أن أجيبه:

«كل تلك الاتهامات مجرد شوشرة من منافسي».

عاجلني بثقة: «إذن تعترفين بارتكاب هذه التهم؟»، تنفست بهدوء وأنا أرسم نصف ابتسامة على محياي؛ فهو يحاول إثارة غضبي ببروده لأعترف بأنني أقدم رشاوي تحت مسمى الهدايا لإنجاز بعض الأمور المعرقلة، هي ليست رشوة عن عمد لقد علمنا الزمن والدنيا أن نهادي الجميع «تهادوا تحابوا» هي محبة تفتح لنا القلوب المغلقة»، صرخ في لأجيب، فأصررت على رفضي هذه الاتهامات، قلت:

«أنكر التزوير والتخابر فهي قضايا ملفقة ووشاية من منافسي، لقد حققت كل ما وصلت إليه بمجهودي وتعبي، أما الموظفين فلم يقوموا بواجباتهم على أكمل وجه لذا فصلتهم».

ببرود أكمل أسئلته:

«كل هذا لا يعفيكِ مما اتُّهمتِ به»، همسْتُ: «يمكنني إصلاح ما حدث بأن أقدم اعتذاري للكبار لتزول تلك الغمة، على الإسراع في إجراء بعض الاتصالات المهمة».

تحرك على كرسيه وهو يتبادل النظرات مع سكرتير التحقيق قبل أن يضيف:

صمتك لا يفيد، وموقفك في القضية معقد.

أخرجني عن هدوئي لأثور وأحتد قائلة، «قد أكون أجيد التعامل مع الجميع لأنهي شئوني دون مشاكل، بما يجعل مَن حولي يظنون أنني ماكرةً ومخادعة، لكن هذه تعاملات ضرورية للبقاء في هذا السوق، لقد أسأتم إلى سمعتي بهذا الأسلوب الذي استدعيتموني به، سأطالب بتعويض يا سيادة المحقق ولن أترك حقي مهما كان الثمن»، بنبرةٍ هادئةٍ أجابني:

«الملخص.. تعترفين بارتكاب كل ما وجه إليك من اتهامات؟!»، سارعت بنفي التهمة؛ «قلت أرفض كل هذه الاتهامات ولا دليل عليها كما أن قضية التخابر مجرد شو إعلامي للإساءة إلى سمعتي

وصورتي، سأثبت أن كل هذا مجرد هراء، فأنا أخدم المجتمع ولدي مؤسسات خدمية عديدة كلها تصب في صالح المصلحة العامة».

ظل لثوان صامت قبل أن يخبرني بما يظنه في؛ «أعتقد أنكِ تسوفين وتحاولين ادعاء الوطنية، دعينا نحقق في القضايا واحدة.. واحدة!»، لا أنكر أن جمود ملامحه وبروده في التعامل أربكني فحاولت إخفاء رعشة يدي بتناول كوب ماء من أمامه لأرتشف القليل ثم أعيده في محاولة لترتيب أفكاري، لمحت نظرته الحادة نحوي لكني تجاهلتها قبل أن أضيف:

لا تكن ملكيًا أكثر من الملك، أنا وطنية بطريقتي، ثم هل ترضى سيادتك أن أخسر كل ما جنيته؟!! هذا ظلم بيِّن!! أعلم منذ البداية أن هذا حال سوق العمل، وكل كبير دومًا يأتي عليه يوم يحاربه الآخَرون لِيَحُدُّوا من صعوده لكن ما يحدث لي كثيرٌ جدًا، صحيح الدنيا والسوق غدار ان لكنني لست بالضعيفة ولا الحمقاء لأرضخ لهذه المكائد وأسقط كما يريدون.

لكنه استفزني بابتساماته الباردة، أشعرني بالارتباك أكثر لأضيع وسط أفكار تنهش تركيزي؛ تأخذني بعيدًا حيث يقبع حبل المشنقة في انتظاري، لكنني لن أسمح بذلك مهما كان الثمن، نظرت إليه بتحدٍ فبادلني نفس النظرة الواثقة مع ابتسامة سخيفة، أدرت وجهي للاتجاه الآخر وأنا أزفر بشدة وأتمتم «يا ربي سيكون اليوم طويلًا جدًا»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-سهام-

«فنانة كلمات أنتِ يا سهام»، كنت سعيدة بما أنجزته متفائلة بالقادم، نظرت حولي لأريح عينيي، ثم نظرت إلى اللاب توب فوجدت أن الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، لم يكن لدي رغبة في النوم فذهبت إلى المطبخ جهزْتُ وجبةً سريعةً من العيش الفينو والتونة مع فنجان قهوة، ليساعدني على التركيز..

قررت أن اكتب القصة الأخرى أيضا الليلة فكالعادة عندما أكتب، تتملكني مشاعر الإثارة، ولا زالت مشاعري متأججة من القصة الأولى مما سيساعدني على إنهاء القصة الجديدة بسهولة، لكن على سبيل التغير سأجعل القاضي هو الراوي.

ابتسمت لهذه الفكرة هل يتوقع أحد أن يفشي القاضي أسرار قضاياه، ستعجب رئيس التحرير بالتأكيد، تناولت عشائي سريعًا ثم بدأت أكتب..

بِعِ الدنيا واشترِ الآخرة. اتركها؛ ستسعى خلفك آخرتك، لكن إن فضلت الأولى فالثانية سترحل عنك، لأنها نبتة تذهبَ ثمارها لمن حرث أرض الدنيا وغرس بذرتها داخلها، هيا اخْتَرْ!

نصيحة ضياع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-آنا مونتيس-

مرت في حياتي قضايا عديدة كان شعارها النبل والأخلاق، ولكن في جوفها يتمركز العفن، البعض ينادي بالحرية في حين يقيد هو من حريات غيره مدعيًا ألوهيته أو نضجه هو ليحدد لغيرة كيف يمارس حريته!! والبعض يسعى للعدالة والمساواة والخير في حين أن لبنة بنائه قائمة على فساد في كل الأركان والزوايا؛ لذا دائمًا ما أفكر في كل قضية تُعْرَض عليَّ بروح القانون قبل تطبيق قواعده، أبحث عن العدل والعدالة في كل ورقة وكل كلمة تخص القضية، يحكمني القانون بقواعده وتشريعاته والإنجيل بآياته وعقلي وفهمي لكل ما حولي.

أبحث عن العدالة والعدل، فخلفي صقر العدل يفرد جناحيه ميزان طول فترة تداول أي قضية، يظللني دفء القانون لنشر العدل بين مَن يتخاصمون أمامي، يشاركني الحكم في أية قضية قضاةٌ اختيروا من بين الشعب للتأكد من أن روح القانون والعدالة هي ما تسير القضايا، أحيانًا ننصر المظلوم وأحيانًا يقف القانون بجموده في وقف تحقيق وإرساء مبادئ العدل والمساواة حينما لا تكفي الأدلة لإثبات الحق ليعلو الباطل إلى حين، وأحيانًا وفي نفس القضية يختلف تفسير مفهوم العدل حسب وجهة النظر المتبناة أثناء تداول إحدى القضايا، ومن هذه القضايا الشائكة قضية مرت عليَّ في بداية حياتي القضائية، قضية فجرت داخلي مناقشات عديدة كي أصل إلى معنى واضح ثابت لكلمة عدل وكيف يمكننا إرساء مبادئ العدالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العدالة..

كلمة ترادفها العديد من المعانٍ، من فرط براءتها المتخيلة تتوارى الشمس خجلًا أمام ما نحن فيه مِن ظلم وقهرٍ يمارَسُ مِن الجميع على الجميع، لذا يظهر بين الحين والآخر مَن يطالب بالعدل وإن كان الثمن حريته، يُضَحِّى شخصٌ في سبيل العدل علّ صوته يصل لمن بيده ميزان القانون، من هؤلاء فتاة أمريكية من أصل بورتوريكي ولدت في ألمانيا، والدها «ألبرتو مونتيس» طبيبٌ نفسيٌّ تابع للجيش الأمريكي، ووالدتها من مؤيدي حقوق الشعوب اللاتينية في الأمريكتين «إيميليا مونتيس» عاشت بينهما «آنا» تتشرب منهما المبادئ والقيم النبيلة، ومن ضواحي كانساس إلى ميريلاند انتقلت لتلتحق بأفضل المدارس لتتعمق مبادئها الأخلاقية والمجتمعية أكثر، وفي النهاية عملت في الجيش الأمريكي كما والدها بعد تخرجها، بدأت العمل في وزارة العدل الأمريكية ثم انتقلت إلى وكالة الاستخبارات العسكرية حيث تولت وظيفةً مرموقةً جدًا داخل هيئة كبار المحللين في مكتب شئون نيكاراجوا لَما يربو على الخمسة عشر عامًا، طبيعة عملها استدعت سفرها إلى دولة كوبا عدة مرات، بما عمق من قناعاتها الخاصة عن العدل والمساواة، تفانيها في العمل أهلها للاطلاع على مواضيع شائكة ومستندات شديدة الحساسية والسرية، ولأهمية ما تقدمه من تقارير سياسية تعرفت على شخصيات ذات أهمية قصوى داخل البنتاجون، لتصير من أهم الاستشاريين السياسيين المؤثرين في القرارات التي تتخذها الحكومة الأمريكية والخاصة بالحكومة الكوبية، نجاحٌ ما بعده نجاح.

ظل النجاح حليفًا أساسيًا يسير بالتوازي مع خُطَى «آنا»، الجميع يحبها ويثني عليها سواء من زملاء أو رؤساء، تقاريرها موثوق فيها ومعتمَدة، كانت تتبنى سياسةً إصلاحية، فهي في تقاريرها تدعو إلى

إعادة المصالحة مع الطرف الكوبي والتعامل معه على أنه شريك يسعى للنمو ومن صالح البلاد التعاون معه بطريقة حيادية حيث كتبت في تقريرها إلى البنتاجون سنه ١٩٩٨ ما معناه:

«كوبا لم تعد مصدرًا لأيِّ تهديدٍ استراتيجيٍّ ضد الولايات المتحدة»، وكانت من ضمن مَن نادوا عام ١٩٩٩ من أجل زيادة الأصوات الموافقة على إقامة تدريبات عسكرية مشتركة بين الجانب الأمريكي والجانب الكوبي، لدعم المصالحة وتعميق العلاقات بين دولتين يتعاملان كعدوين لدودين، ونتيجة لمكانة «آنا» ومركزها الوظيفي نُفِّذَت بعضٌ مِن نصائحها وظل الباقي حبيس الأدراج حتى حين.

ومما أكد على أهميتها ما ذكره وزير الخارجية الأمريكي «كولين باول» عندما مثل سنة ٢٠٠١ أمام الكونجرس من أن رئيس كوبا «فيديل كاسترو» أنجز الكثير لشعبه وأنه لم يعد مصدر تهديد للولايات المتحدة الأمريكية، كل هذه الثقة أربكت الحكومة بعد ذلك عندما تم القبض على «آنا» حيث استنتج المعلقون والمحللون السياسيون أن «باول» اعتمد في تقييمه لرئيس كوبا على التقارير التي وضعتها «آنا»، لكن ما وضع الحكومة في موقف لا تُحْسَد عليه فهو أن بعض المحللين تفهموا الدوافع الأخلاقية لتصرفات «آنا» مما زاد من سخط الحكومة تجاه «آنا» لتطالب بأقصى العقوبات جَرَّاء ما اتُّهِمَت به لوأد أيِّ بلبلةٍ قد حدثت جَرَّاء فِعْلَتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد وقوع حادث سبتمبر وتفجير برجَي التجارة العالمي، بدأت المخابرات في التشديد من إجراءاتها ومراقبة الجميع وتحليل كل ما لديها، ليتم القبض على «آنا» من قِبَل مكتب التحقيقات الفيدرالية، ليوجه لها المحققون العديد من الاتهامات أهمها؛ التخابر لصالح دولة أجنبية، وتسريب أسرار قومية إلى الحكومة الكوبية، خاصة بعد إثبات كشفها شبكة جاسوسية أمريكية تعمل داخل الأراضي الكوبية، وتسريبها معلومات سرية غاية في الأهمية حول المناقشات التي تدور بين صناع القرار السياسي بين أروقة الحكومة فيما يخص الحكومة الكوبية، لكن..

لم يستطيعوا إثبات تقاضيها أية مبالغ أو قبول أي مقابل نظير خدماتها تلك، لتصنف «آنا» على أنها جاسوس من نوع خاص، فهي حالة شديدة الخصوصية قلَّما يتواجد مثلها، فرغم إدراكها للمخاطر الأيدلوجية والأخلاقية لِما فعلت إلا أنها كانت مقتنعةً بكل ما تفعل وتجد له مَنْفَذًا أخلاقيًا حيث واجهت المحكمة بآرائها واعترفت بكل شيء مضيفةً:

«إنني مؤمنةٌ أشد الإيمان بأن سياسة حكومتنا تجاه كوبا سياسة تتسم بالقسوة وتفتقر إلى العدل والإنصاف، بل وأقول إنها سياسة تبغض حقوق الجيرة أشد البغض، لقد شعرت بدافع أخلاقي ألزمني بمد يد العون لتلك الجزيرة كي تدافع عن نفسها وتدرأ عنها كافة محاولاتنا نحن الأمريكيين إلى فرض قيمنا ونظامنا السياسي قسرًا عليها.

إننا لم نُظْهِر تجاه كوبا سوى التشدد والازدراء على مدار العقود الأربعة المنصرمة، إننا لم نحترم حق كوبا في أن تخوض بنفسها رحلتها نحو القيم المثالية التي ترتضيها لنفسها مِن عدلٍ ومساواة، كما أنني لا أفهم الأسباب التي تجبرنا نحن الأمريكيين على الاستمرار في تعليم شعب كوبا كيفية انتخاب قادتهم، والتدخل في تحديد مَن يصلح لزعامة هذا الشعب ومَن لا يصلح، والتدخل في تحديد القوانين

التي تناسب أرضهم، لماذا لا نترك كوبا تسعى كما تريد وتشاء وراء تحقيق رحلتها داخل بلادها نحو العدل والمساواة، تماما مثلما فعلت الولايات المتحدة على مدار قرنين كاملين؟»

لتعترف أن دافعها للتجسس ليس دافعًا ماديًا بل هو دافعٌ أخلاقيٌّ لمساعدة أُمَّةٍ تُعامِلُها حكومة أُمَّةٍ أخرى على أنها مجرد دابةٍ تحركها كيفما اتفق حسب أهوائها هي، شعرَت وهي تفسر أسباب سقوطها في بئر الخيانة بأن القضاة قد تعاطفوا معها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أنكر أن الدموع ترقرقت في عيني وملأ الشجن ملامحي تأثرًا بكل ما تقوله وتعترف به، لكن لم أستطع أن أغفر لها خيانتها لذا حاولت نصحها ولكن للأسف هو نصح يأتيها بعد فوات الأوان، فجَلَّ ما استطعت أن أعقب به بعد اعترافاتها وخطبتها عن العدالة والأخلاق أن:

«إذا كان بغير استطاعتك أن تحبين بلدك وتشعرين نحوها بالولاء، فعلى الأقل كان يجب عليك ألا تُلْحِقين بها أي ضرر، لقد تعمدْتِّ الإساءة إلى الولايات المتحدة وإلحاق الأذى بها، وعليكِ أن تدفعي ثمن ذلك، بنيتي عدم الموافقة على سياسات الحكومة أمر، وخيانة العهد والتجسس ضد أمن البلاد أمْرٌ آخَر كان عليك التفريق بينهما لا السقوط هكذا».

طلبْتُ منها الاعتذار للشعب الأمريكي والاعتراف بالخطأ لكنها أبت ولم يرمش لها جفن، حتى لم تدمع لها عينٌ ندمًا، وعادت من جديد لشرح نظريتها متعللة بِجَوْرِ الولايات المتحدة الموجه للجميع خاصة دولة كوبا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما زاد من سوء قضيتها أنه بعدما كانت القضية يتم تداولها داخل قاعة المحكمة في سِرِّيَّةٍ مُطْلَقَةٍ يغطيها ألف ستارٍ وستارٍ لتخفيها الحكومة عن وسائل الإعلام، وأبواق الصحافة المتتبعة لكل همسة تخص الحكومة، وصل مظروفٌ خاصٌ بالقضية إلى جريدة «ميامي هيرالد تريبيون» الصادرة من ميامي حيث يتواجد أعداد غفيرة مكونه جالية كوبية أمريكية.

فجرت الجريدة القضية محدثةً صدمةً في الأوساط السياسية، خاصةً وسط جاليةٍ لها تأثيرٌ ملحوظٌ في الحياة السياسية والاجتماعية ممثَّلَةً في الجالية الكوبية، تبعها بعد ذلك العديد من الصحف فلجأت الحكومة حينها لزيادة الحديث عن الحرب ضد الإرهاب خاصةً في أفغانستان، بالإضافة إلى بعض القضايا الداخلية مثل الفضائح المالية لشركات كبرى في أمريكا مثل «إنرون»، لكن الأمر لم يُفْلِح لتظل قضية «آنا» تشغل عقول الرأي العام الأمريكي، فكيف باعت وطنها دون مقابل هكذا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تابعْتُ الجرائد بعد انتهاء القضية لأقف على ردود الأفعال الأمريكية ليفاجأني تصريح وزير الخارجية الكوبي «فيليب بيريز»، الذي أعرب فيه عن أسفه الشديد لِما حدث لصديقة الكوبيين «آنا»، وقال في مؤتمر صحفي:

«إننا نكن «لآنا بيليز مونتيس» كل احترامٍ وإعجاب، فأفعالها صدرت عن مبادئ أخلاقية وإحساسٍ مُرْهَفٍ من جانبها بقيمة العدالة».

لكن رئيس الدولة الكوبية التي باعت نفسها لأجلها لم يهتم أو يُبْدي أيَّ تعاطفٍ تجاهها في حين انبرَى مدافعًا عن مجموعة الجواسيس التي قبضت عليهم الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠١، فيما أطلق عليه «شبكة الدبابير» وهم خمسٌ مِن الجواسيس الكوبيين تم القبض عليهم في ولاية ميامي، ليصرخ بعدها «فيديل كاسترو»:

«هؤلاء الرفاق سجناء سياسيون في الولايات المتحدة، وسيعرف الرأي العام في كوبا والعالم أجمع ما يشعر به هؤلاء السجناء الآن، وسيعرف ما يدور في أذهانهم، وسيقدر كثيراً شجاعتهم وكرامتهم، سيتحول هؤلاء إلى قدوةٍ يَحْتَذي بها الشباب في كل أنحاء الدنيا».

لم يهتم بمن اتهمت بالتآمر والتخابر ضد بلادها، لأنه في صميم ضميره مثلنا نحن الأمريكان يحتقر من باع بلاده مدعيًا الأخلاق، حاولَت «آنا» أثناء فترة المحاكمة المطالبة بالعدل والعدالة لها ولكوبا، ظلت تنادي أنها لم تتآمر كل ما في الأمر أنها حاولت تحقيق العدالة!!

وهل من العدالة أن تبيع بلادك أيا كان السبب؟!

أو أن تحاول إسقاط بلادك بين أنياب دولة أخرى؟!

أن ترمي أسرار دولتك في حِجْرِ أخرى متعللًا بتحقيق العدالة؟

ألا يعلمون أن ما يُبْنَى على خطإٍ فهو خطأ، كيف تبني العدالة على أنقاض عدالةٍ أخرى، أُنْشِأت الدولة الأمريكية على أنقاض مواطنيها الأصليين من الهنود الحمر، كان الدم مِداد كل ما فيها؛ لذا للآن لا زالت تدفع ثمن جريمةٍ بشعةٍ قامت بها سنين طويلة، فهل نزيد الطين بلل، ونُقَوِّضُ من أركان هذه الدولة المُشَبَّعة بالدماء لأجل أهدافٍ يدَّعون أنها نبيلة، أيَّ نُبْلٍ في عدالة مبينةٍ على الغش والخداع؟! ألا يتعلم هؤلاء من أخطاء الماضي؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحيح تريدون ما حدث في قضية «آنا مونتيس» لقد استمرت التحقيقات وجلسات المحاكمة حتى ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢ حيث أعلنت أنا قاضي مقاطعة كولومبيا الليبرالي «ريكاردو أوبرينا» ثبوت تهمة «تسريب أسرار تضر الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية إلى الحكومة الكوبية»، مما يمثل كارثةً قد تُسْقِطُ الدولة معها، ثم تمت المداولات النهائية واستقر الرأي على إصدار حُكْمٍ عليها بخمسٍ وعشرين عامًا تقضيها بين أسوارٍ قد تُهَذِّبُ مِن أخلاقياتها الجامحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحظة صدق -سهام-

دوى صوت أذان الفجر في أذني فجأة وأنا أُخُطُّ آخِرَ سطر، متثائبةً حاولت تحريك جسدي المنهك قليلًا، كنت أشعر بالإثارة الممتعة مع خليطٍ من الراحة الرهيبة والفخر لإنجازي عمل أسبوعين في ليلة واحدة، أطفأت اللاب توب ثم توجهت إلى غرفتي لأمنح جسدي المنهك وعقلي المتعَب بعض الراحة، غدًا أراجع القصص مستغلةً آخِرَ يومٍ في إجازتي المنهوبة مِن فك السبع، ثم أعرضها على رئيس التحرير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أفكر قبل نومي في أنني أحارب وحدي منذ سنوات، كنت أشعر أن لا أحد غيري يعاني بسبب ظروفه، لكن الليلة اكتشفت كم سعادتي بالنعم الموجودة حولي، مَن قال إن الأوضاع السيئة قاتلة، يمكننا أن نجد مَهْرَبًا ولو عبر مَنْفَذٍ صغيرٍ لنمارس أشياء صغيرة تعيدنا على قيد الحياة وتشعرنا معها بالحياة رغم الظروف ورغم قسوة أغلَب البشر حولنا، سآخذ حقي من الدنيا والحياة رغم أنف الظروف والجميع، ربما عليَّ التفكير ثم التخطيط لما سأفعله بعد ذلك، سأنفذ هذا بعد أن أتأكد من قبول نشر قصصي.

سأقضي أسبوعا في الإسكندرية لأنعم بأحضان عمي الدافئة وقلبه الحنون، وبعضًا مِن الحياة ولذتها مع أولاده وأحفاده، من الجيد أن «أحمد» دعاني للذهاب معهم؛ فإنني أستحق هذه الرحلة كمكافأةٍ بعد مجهود الفترة الماضية، سواء في الدار أو الجريدة، سأعيد تهوية روحي قبل العودة للدوران في ساقية الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت الساعة الثانية عشر ظهرًا بعد عدة أحلام مثيرة، كنت أرى نفسي بطلة قصصي، أنتقل من قصة لأخرى، شعرت بضربات قلبي تصرخ كما قَنابل متتالية تنفجر، ينتفض جسدي فأنهكني لأثبت في سريري، ثم قررت أن أتسلى بمطالعه صفحاتي على الإنترنت، تابعت الأخبار والتي لا سيرة لها غير الحرب على الإرهاب، محاربة داعش في سوريا، الحوثيون في اليمن، الكوارث التي حدثت أثناء الحج في السعودية، السيسي وحربه على الإرهاب في سيناء ثم الأزمات الداخلية في مصر، ثم الإخوان والاتهامات المتبادلة بالخيانة والعمالة، انتفاضة فلسطين الثالثة.. قرأت مقالًا لأستاذ «وجدي» يعلق على كل هذه الأحداث، فقررت أن أفعل مثله ربما جذب ذلك انتباهه نحوي ليلاحظ أن لدي الكثير لأقدمه، فتحت مدونتي وبدأت أنظم أفكاري ثم كتبت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سأخبركم قصة طفل بل أطفال غَيَّبها الثري بسب طمع الكبار.. فهناك في عدة دول حيث يتقاتل مَن فيها لأسبابٍ عديدةٍ ومختلفةٍ متشابهة النتيجة والضرر، حيث يسطو ويحتل إنسان بلا حق ملكية آخَر دون أن يعترض ولاة الأمر، حيث تدور طواحين حروب تقتل وتغتال براءة كل مَن تلمسه وسط دعواتٍ ماجنةٍ من المستفيدين من كل هذا الخراب بالتطبيع وإطالة أمد الصبر رغم صرخات الفزع المتتالية ممن يسحقون أمامهم.

من بين خرائب خَلفتّها طلقات بيرتا وكيو أس زد وغيرها، والتي يفصل بين فترات تساقطها سيمفونيةٌ غاضبةٌ تهدر من المروحيات المغتصبة للسماء، حيث يتساقط النابلم وتنفجر قنابل عنقودية وأخرى فسفورية، أفاق قلبٌ مقهورٌ وصرخ مبتهلًا لله مناديًا..

يا رب.. يا رب..

تعبت من هذه الحرب الدائرة كما بغي تتلذَّذ بقتلَى هواها، سقط الأطفال صرعَى ذعرهم مِن كابوسٍ مرعبٍ، موسيقاه برقٌ ورعدٌ زَيَّفَ ضمائر قادتنا، ضاع الأهل بين رُكام شَجْبٍ واعتراضٍ أخرَسَ النبرة والحركات، تَشَوَّهَ كل ما حولي.. البيوت.. الشجر.. السماء.. وحتى نفوس البشر، يا رب.. ظَلَمنا فُظِلمنا، قتلْنا الجميل فينا فقُتلنا، يا رب.. دُهِسنا بأقدام إخوتنا، أغرقَتنا أمواج وطننا ثم لفظَتنا شواطئه، وفي النهاية

تم بيعنا مقابل صفقةٍ خاسرةٍ بيعت فيها الأرض وعليها هديةٌ دماء مَن عليها سكن، فَدُفِنَ تاريخ الأجداد ومستقبل الأحفاد بِيَدِ حفنةٍ من أبناء ظنوا أنهم مُلاك الوطن.

يا رب سخِروا صارخين فينا هادِنوا، تواضعوا لا داعٍ لغرور أو حتى ثقة كما تدَّعون، لقد هدمنا جذوركم، هيا عن بعض حقوقكم تنازلوا وفي المقابل سنترككم تمارسون الحياة، ثم وبكل جبروت سرقوا أنفاسنا وحتى الهواء، فتنازُلٌ يتبعه تنازلٌ يتبعه آخَر حتى يضيع كل ما نملك، سلبوا منا الحياة ومن كل مَن مثلنا يعارض!! وكما جرادٌ جائعٌ التهموا كل ما وقعت عليه عيونهم وتركوا لنا الفُتات، سرقوا منا الأمل في النجاة؛ وما أبشع الحياة بلا حُلْمٍ أو أمل.

يظنون أنهم قضوا علينا، كمموا الأفواه وأعموا العيون بِذُلِّهم، يعتقدون أن بِقُوَّتهم المستندة على صمت الشرق وسيطرة الغرب بعد دفن الإنسانية في مقبرة المصالح يحاولون إحكام السيطرة بمحاولات إغماض أعيننا.. إخراس أفواهنا.. وإغلاق آذاننا، لا يعلمون أن الجائع للحق لبؤة شرسة لا يخشى فحيح الظلم، لا يرعبه زئير مصالح العالم الأول وأذناب أخطبوطه ولا سجنه الخانق للروح كما شبكة عنكبوت؛ فمن بين العتمة سنجد النور وننشره.

من بين الركام صاح القلب المقهور:

يا رب يومًا كان عندي وطن، سرقه مني الأوغاد لكنني سأعيده وبقوة إيماني سأدفعهم داخل بئر أوساخهم، سأدفنهم بين صفائح نفاياتهم، يومًا سيُولَدُ مِن رَحِمِ بناته مَن يرفع راياته عاليًا ويطالب بالحق دون هلَعٍ من قسوة كهنة الظلام وتعنت سدنة الظلم في وجَه الحق.

يومًا سأعيدك يا وطني كي تربي أولادي وأحفادي في خيرك وعز قوتكَ، فقويني يا رب وإن لم أفعل فيكفني المحاربة والموت فداء إظهار الحق وفزعه داخل وجدان الأبناء، يكفيني أن موتي سيكون شارةً توقظ قلوب البعض، وتقلق مضجع البعض، وتشعل ثورة البعض الآخر فيحملوا راياتك يا وطني من بعدي ومَن معي، ليهتفوا بأقلامهم وأرواحهم..

يومًا سأعيد وطني ليكون خير الأوطان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغلقت اللاب توب ثم توجهت إلى المطبخ لأجهز بيضًا مقليًا بالسمن وسلطة خضراء تناولتهما مع كوب نسكافية كبير، لا زالت الساعة الثانية واليوم طويلٌ ولا رغبة لديَّ في الخروج، تنقلت بين قنوات التلفاز لكنني لم أجد ما يشدني إليه؛ لذا قررت الخروج مضطرة.

ارتديت ملابسي سريعًا، قررت التنقل عبر المواصلات العامة، كانت وجهتي شارع المعز كي أتمشى قليلًا، ومنه دخلت إلى منطقة الحسين، تأكدت أنني أملك المال الكافي ثم توجهت إلى مسمطٍ لمَحْتُهُ على مدى بصري، جلست على طاولةٍ قريبةٍ من الباب وطلبت طبق ممبارٍ وطبق فشةٍ وكبدةٍ وشوربة كوارع وفتة وطبق كرشة، أَحْضَرَ العامل كل ما طلبْت، سألْته على الحسابِ ومنحْته إياه كي لا يقاطعني لأي سبب، ثم غرقْت في تفاصيل الطعم والنكهة التي أعشقها، آخذ قطعةً من هذا لأغطيه بتلك وأتلذذ بالمذاق، أغمس يدي في الشطيطة وأرسل لقيماتٍ داخل فمي يتبعها قطعة كبدة وأبتلع كل ذلك مع شوربة الكوارع، أغمضت عيني مِن فَرْطِ المتعة، أستمع لصوت «سعد الصغير» الذي يصدح داخل رأسي فقط، كنت أراقب ما في الأطباق أخشى أن تفلت مني قطعة، أستمتع بتحولها من الطبق إلى معدتي، حتى قَطَعَ عليَّ متعتي واسترسالي في بحر لذَّتي الخاصة صوتٌ غريب..

أتعلمين أنكِ هكذا تدمرين معدتك وبشرتك أيضًا

جهزت نفسي لوصلة شتائم منتقاة مع بعض من عبارات السخرية المعتبرة، لكن شلتني مفاجأة أن هذا الوجه مألوف لدي، تسمرت على كرسي أنظر في بلاهة، حتى تأكدت، يا للكارثة..

شريف؟!.. أأ.. ماذا تفعل هنا؟!

فاجأني بضحكته السمجة، ليصيح صوتٌ داخل رأسي صارخًا، «يا ربي يوم أرى أحد أولاد خالتي يكون هنا، وأنا أخوض حرب طعام غير بَشَرِيٍّ في نظَرِهِ»، تمنيت لو انشقت الأرض وابتلعت جسدي، تثير أعصابي برودة أفعاله وابتسامته السخيفة المرتسمة على وجهه بعدما ضبطني بالجُرم المشهود، ادعيت الغباء ودعوته ليجلس معي، لكنه تأفف من الرائحة والمنظر قائلًا:

لم أصدق عيني وأنا أمر من هنا لأزور أحد أصدقائي بالقرب من المكان وأنا ألمحك غائصةً في الطبق أمامك بهذا المنظر، لقد كذبت عيني ودخلت لأثبت لنفسي أنني مخطئ، لم أتوقع أن أراكِ تقومين بهذا الفعل المشين يا ابنة خالتي، هل نفذت أموالك ولا تجدين ما تشترين به طعامًا إنسانيًّا؛ ماذا تركتِ للفقراء والمعوزين ليأكلوه؟!

لم يدع لي الفرصة للرد، أو للسؤال عن خالتي وأحوالها أو عن شقيقاته، ألجمتني المفاجأة قبل أن يهمس ليزيد الطين بلة، أن الرائحة غير لطيفة وتؤذي خياشيمه الحساسة الرقيقة وتركني مسرعًا، كأنما صرعه جني، ضربْتُ رأسي بالطاولة، بكيت للحظات ولكن تذكرت وليمتي، فرفعت رأسي في محاولة لمراقبه ما حولي، «حمدًا لله لم ينتبه له أي شخص»، انتهيت من وجبتي الخطيرة سريعًا محاولة استعادة ملامح تلذذي الأول، ولكن هيهات تبًا لذلك الوغد، السمج، السخيف، البارد.

لقد أجاد إشعاري بالسوء مما فعلت، رغم أنني كنت أفعل ذلك أيام والدتي وأبي ولم يعترض أيهما بل أَحَبَّاه لأجلي، أشعر بسَخَطٍ عارِم على كل شيء، فحتى هوايتي المحببة في تناول كل ما هو غريب باتت شبهة عليَّ توخي الحذر عِنْدَ ممارستها، ابتعدت عن المسمط قدر استطاعتي قبل أن أَصْدَمَ للمرة

الثانية وذلك عندما وجدته أمامي يتحدث في هاتفه ويبتسم بسذاجة، همست دون أن أدري، «هل يراقبني ذلك الأرعن؟!»، غَطَّت الصدمة دهشتي لمقابلته مرة ثانية في نفس الساعة.

قبل أن أتخطى مشاعري المتوترة هذه أَنْهَى اتصاله واقترب ليأخذني مِن يدي، كنت كما طفلٍ معاقَبٍ أسير جواره بلا حَوْلٍ ولا قوةٍ مني، تمشينا وسط محالٍ لمنتجاتٍ معدنية يدوية الصنع بديعة الشكل ورائحة البخور تحوطنا، أماكن أثرية تسحر العقول؛ لكنني فقدت قدرتي على الاستمتاع بها بسبب صوته وهو يرغي ويزبد حول مجموعة من النصائح الطبية، عن الأغذية الصحية وعاداتنا وسلوكياتنا في الأكل نحن المصريين، في محاولة للهرب من حديثة كنت أطأطئ رأسي ناظرةً إلى الأرض وبين الحين والآخر أختلس نظرة إليه، يا له من وسيمٍ لكن أسلوبه قميء.

كان كقطارٍ يفرم كل ما يمر أمامه بلا هَوادة، أعتقد أنه مستمتعٌ بما يبثه داخلي من فراغٍ بسبب حديثه، بين الحينٍ والآخر ألمحه ينظر نحوي بقرف، ظل يثرثر عن ضربي لكل معايير السلامة عرض الحائط بفعلتي الشنيعة هذه، ثم عرض أن يساعدني لأتحول إلى نجمة سينمائية بعملية تجميل لن تكلفني الكثير داخل مستشفاه الخاصة، استعرض خدماته التي يؤديها لمعارفه ولمن لا يعرفهم بمثل تلك العمليات وغيرها داخل المستشفى الخاص التي يملكها بدعم وتمويل والدته ذات القلب الرهيف الحنون.

كنت أتصاغر أمامه حتى ظننت أن طولي أصبح مترًا واحدا، ألا يكفي أنه يُشْعِرُني بالضآلة جواره بطوله القريب من المترين وبشرته الشديدة البياض وجسده اللامع وكأنما يستحم باللبن والعسل.

رغم أنه يبدو كما نجوم السينما لكنه في نظري مجرد شخصٍ باردٍ سَمِجٍ يتدخل فيما لا يعنيه، اقتربنا من قهوة «الفيشاوي» فجلس وأشار إلى الكرسي المقابل له فجلسْتُ وأنا أنظر إلى الأرض، طلب شايًا بالنعناع وهو يخبر العامل أن شركته تحتاج لهضم أطنانٍ مِن أكْلِ الكلاب.

جذذت على أسناني وشعرت بالدموع تندفع إلى عيني، وملامحي تشي بضَعْفٍ عام، فما كان مني إلا أن ضربت رأسي بالطاولة، وبقيت على هذا الوضع لدقائق، صرخت بصوت داخلي، لماذا أصمت وهو يفعل بي كل ذلك؟ لماذا لا أضربه بسكينٍ في قلبه واهرب؟ اندفعَتِ الدماء إلى رأسي، لأشعر بوجهي تشتعل فيه النار، فرفعْتُ رأسي لأرد على وقاحته، وجدته ويا للحماقة..

يدخن شيشة تفاح، تبدلَتْ ملامحي من الضعف إلى الثورة في دقائق وبرؤيته تحولَتْ ملامحي إلى قردٍ أبلهٍ في ثوانٍ، لترتسم على شفتَيَّ علامة تَذَمُّرٍ كما الأطفال، رَفَعْتُ حاجبي الأيمن، وبقدر ما تمكنت جمعْتُ كل قدرتي على السخرية لأرد له الصاع صاعين، ودِدْتُ لو استطعت الصراخ فيه وضربه ولكنني اكتفيت بالتساؤل بخبث:

هل السمين أكثر ضررًا أم الشيشة يا طبيب الصحة؟

ثم ضحكت بصوتٍ عالٍ لَفَتَ انتباه مَن حولنا، وقفْتُ لأنادي صبي القهوة وأطلب منه ساخرةً أن يأخذ الشيشة من هذا الشاب فقد يموت خنقًا لِفَرْطِ رفاهيته ودلاله، فمَن لا يحتمل السمين كيف يحتمل التدخين، لمحْتُ ابتسامات متفرقة حولنا، وتحول وجهه إلى الأحمر القاني خجلًا أو ربما غضبًا، لا

يهم، لقد أحرجته أمام الجميع وأخذت حقي هذا ما كنت أريده، تحركت سريعًا قبل أن يفيق من ضربتي وعدت إلى شقتي شعرت بالنصر.

شعرت بالملل بمجرد فتحي باب الشقة، وفي محاولة لنسيان ما حدث وتخطي مللي شغلت التلفاز، تنقلت بين القنوات لكن لم يجذب انتباهي أي شيء، ففتحت اللاب لأتصفح صفحات الإنترنت خاصةً الفيس بوك، بعد فترة شعرت بالملل، خاصة مع تذكري كلمات ابن خالتي، لم أرغب في الاتصال بـ «مي» أو «سيمون» كي لا ينكشف أمري ويعلمون أنني أنهيت عملي وأجلس في شقتي مرتاحة، أغلقت صفحات الإنترنت وبدأت أقرأ في قصةٍ جديدةٍ أَرْسَلَ «أحمد» صور تحقيقاتها عبر الفيس بوك لأكتب عنها في الجريدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-شريفة-

كركبت الدنيا من حولي فجأة، «شريفة الباز» سقطت، لكنني لن أسمح بذلك، كنت أحاول إعادة حساباتي للمرة المائة بلا جدوى، داخل حجرةٍ صغيرةٍ، حارةٍ، الصمت هو عنوانها الرئيسي والذي يقطعه صوتٌ خشنٌ جافٌ يلقي بالأسئلة ثم يختفي ليسمع الإجابات، كنت أجلس كما فأرٍ داخل مصيدة..

ذلك المحقق الخبيث، يبتسم بطريقة استفزازية؛ فزفرْتُ أنفاسي سريعًا ثم تنفسْتُ بعمقٍ لأُخْرِجَ الزفير ببطء، ضممْتُ كف يدي الأيسر داخل كفي الأيمن ومددت يدي أمامي تذكرت بعض مما تعلمته في الحياة، عليّ أن أجيب بـ؛ نعم.. حسنًا.. أعتذر.. غلطة لن تتكرر ثم لا شيء فلست ملزمة بالتنفيذ ستفسد الشكوى حينها لاعترافي بخطئي مع منحي بعض الوعود بإصلاح الحال بعدها ينتهي الأمر، لكن ماذا سأفعل في باقي الاتهامات، تركت المحامي يدافع عني ويتناقش مع المحقق وشرَدْتُ في أفكاري..

لو علموا أن أولادي يساعدونني في عمليات إرسال الأعضاء البشرية للخارج تلك التي يوفرها «شريف» ممن يذهبون إلى مستشفاه يشتكون من بعض الأمراض فيدخلهم حجرة العمليات ويتم الأمر في هدوء بما لا يثير الشكوك حوله، كيف لو علموا بأمر الاتجار في الأعضاء هل وَشَى بي زملاؤه؟!

بنبرةْ ساخرةْ تحمل بُغْضًا كبيرًا سمعت صوت أحد المرضى وهو يرفع يده للسماء قائلًا؛ «الظلم ظلمات ولنا رب يخلص المظالم» كنت يومها في زيارة للمستشفى وأخبرني شريف أن الرجل علم أن كليته قد سرقت لكنه لا يستطيع إثبات أي شيء ضده، راضيته يومها بمَبْلَغٍ وظننت الأمر أُغْلِقَ على ذلك، يبدو أن هناك مَن نبش خلفه!!

ماذا لو علِموا أن «جنة» تهرب الأعضاء مع منتجاتها للخارج؟! وماذا عن «ملك» فهي مَن تقوم بعقد الصفقات وترتب كل الأمور الخاصة بهذه الاتفاقات بالإضافة إلى ترتيب أمور الطلاب المسافرين في بعثاتٍ لجامعاتٍ خاصةٍ يتدربون فيها على إدارة الأمور السياسية في البلاد وفق أسس ديمقراطية يحددها المنظمون لهذه الدورات.

أُف، أريد فترةً أوفق فيها أوضاعي ثم أُراضي مَن قلبوا الطاولة على رأسي هكذا، أعدت رسم ملامح الوقار والرزينة على ملامحي ربما استطعت مساومة المحقق على حريتي؛ قبل أن أنطق فاجأني؛ «عطلْتِني بِصَمْتِكِ هذا لكن لديَّ اليوم بطولة، أين أولادك؟»، أخفيت فمي بيدي اليمني وأنا أجيبه بصوتٍ هادئ؛ «يحلها الحلال لا أعلم أين هم لم أتحدث معهم منذ الصباح».

شعر بالغضب وتحولت عيناه إلى صقر ينتظر لحظة الانقضاض؛ بادلني عدة نظرات حارقة قبل أن يحول نظره إلى سكرتير التحقيق وهو يضيف؛ «حسنًا مضطر لاتخاذ إجراء قانوني ضدكِ حتى يحلها حلالكِ، ننتقل للقضية التالية، ما قولك فيما هو منسوب إليكِ من التخابر مع...»

لا جديد أضيفُه وسطَ أحداثٍ تهديك وردة شوك قبل أن تقتلك.

نصيحة ضياع

-عبد الملك عبد المنعم-

لا أرى أي شخصٍ أعرفه بين الحضور، لم يحضر أيٌّ مِن أفراد عائلتي أو أقاربي أو حتى معارفي، حذفني الجميع من بين سجلات تاريخه، نفوني بعيدًا عن عالمهم علَّهم ينسوني، وصمة عار صرتُ بعد أن كنت البطل الذي يتقرب إليه الجميع، وداخل قفصٍ من حديد، كما قرد في حديقة حيوان، يشاهدني مَن حضر مِن عائلات باقي زملائي من المقبوض عليهم المنتظرين لصدور حكم القانون في حقهم، أنظر نصف نظرة تجاه الجميع فترد إليَّ سهام احتقارٍ وبُغْضٍ منهم، تجنبني الجميع طيلة فترة التحقيق والحبس، والآن أيضًا يحاولون تجاهلي، غير أن الفضول يجبرهم على النظر تجاهي بين الحين والآخر.

أشعر برعبٍ فظيع، خوفٌ يُقَطِّعُ أوصالي في انتظار صدور الحكم في حقي، هل يُحَوِّلون أوراقي إلى فضيلة المفتي لأُشنق، أم أُسْجَنَ بحكم مؤبد لخمس وعشرين سنة؟ هل سيرأف أي منهم بحالي؟ متى سيأتي القاضي لينهي هذا العذاب؟ لم أعد أجد تسلية في مراقبة مَن حضر لانتظار الحكم على قريبه؛ فكلهم ممن سحقهم الشقاء والحياة، حتى النظر إلى محاميَّ لا يطمئنني، يبدو فاقد الأمل، يرى مثل الجميع وجوب شنقي لولا أن الواجب المهني يلزمه بالدفاع عني وإلا كان انسحب من القضية، أغمضت عيني لِّعلي أنسى قليلًا ما يحدث وسيحدث فيَّ، سبحت بين ذكرياتي لكنني لم أرَ غير ما اقترفْتُهُ وأوصلني إلى هنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبد الملك عبد المنعم، من قرية «نوسا الغيط»، تطوعت لمدة اثنتي عشرة سنة في القوات البحرية، في السنة الأخيرة كنت قد قررت طلب مد التجنيد علِّي أن أحصل على مكافأة نهاية الخدمة، بالإضافة إلى مَعاشٍ شهرِّي يؤَمِّن مستوًى معيشيًّا معقولًا يسمح بأن أتزوج وأنشئ مشروعًا خاصًّا أعيش على دخله، بعد عدة حسابات وإذا أضفت عدة سنوات لمدة خدمتي وقتها سأحصل على مبلغ يكفي لأقيم مشروعًا ينقلني من خانة متوسطي الدخل إلى خانة ميسوري الحال.

لكن في أثناء الإجازة، قبل تقديم طلب مد فترة التجنيد، سمعت من عدد من زملائي السابقين أنهم يعملون على البواخر التجارية برواتب تفوق مرتبي بخمسة أضعاف وتزيد حسب نوعية العمل والفترة التي نقضيها في عرض البحر حتى نعود إلى بلادنا ومنازلنا؛ لذا أكملت إجراءات إنهاء مدة التجنيد بدلًا من مدها، وبدأت البحث عن فرصة عمل على إحدى هذه البواخر.

ساعدني على إيجاد واحدة عملي السابق في القوات البحرية وخبرتي وحُسْنِ السير والسلوك في أثناء هذه الفترة، تعاقدْتُ مع إحدى البواخر وبدأت العمل والسفر معهم، كنت معتادًا على العمل الشاق، خاصةً أن هذا أفضل فليس له نفس التزامات القوات البحرية ولا تشددها، يمكن للبحارة والعاملين على الباخرة الحصول على إذن لمغادرة الباخرة والنزول في الموانئ المختلفة لمدد محددة للتجول والاستمتاع بمعالم البلد، زرت فرنسا وإيطاليا وتركيا وتايوان، كلها دولٌ النساء فيها كما نقول «تحل من على حبل المشنقة».

لكن لم يكن مسموحًا بأكثر من المشاهدة من بعيد، فلا قدرة لي على تحمل إعالة أو حتى السهر لليلة مع إحدى هؤلاء الحسناوات، كَوَّنْتُ عدة صداقاتٍ بما يسمح بقضاء ليلةٍ سعيدةٍ في كل مِرفَإ دون أي ارتباطات أو مسئوليات، ولهذا قررت البحث عن باخرةٍ أخرى أو فرصة عَمَلٍ أخرى تمكنني من الحياة وسط هذا النعيم دون أرق أو الشعور بمرارة تمرير يدي على جيوبي الخاوية بحسرة، كنت في الغالب أحصل على إجازة كل ثلاثة شهور لمدة شهر، كانت رحلتي هذه المرة ستة أشهر؛ لذا حصلت على إجازة شهرين عندما وصلت إلى قريتي كنت قد قررت الاستمتاع بها إلى أقصى حد، فإلى متى أدخر النقود وأحرم ذاتي من الحياة والعيش في شظف مع زوجتي؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت زيارات الأقارب والجيران ترحيبًا بعودتي، يومًا أذهب إلى عمي الذي دعاني إلى الغداء، ويومًا عند خالتي.. واستمر الحال يسير برتم مُمِلٍّ وبطيء، خاصةً مع سفر أغلب مَن أعرفهم إلى إسرائيل، بعد أسبوعين بدأ نزول عدد منهم فيَّ إجازات وعرفت أنهم يجنون أجورًا وأرباحًا عالية جدًّا من عملهم هناك، فرص العمل متوافرة بكثرة والطلب على العمال المصريين كبير لجودة عملهم في مقابل اعتدال أجورهم، وأخبرني صديقان أنهما تزوجا من إسرائيليتين للحصول على الجنسية، ما يسهل سفرهما إلى هناك والبقاء لفترات طويلة دون الحاجة إلى تصاريح عمل وإقامة تزيد من تكاليف السفر، خاصة أن النساء هناك يعملن أيضًا ولهن دخلٌ كبيرٌ ولن يحتجن لإعالتهن..

أعجبتني الفكرة وظللت لمدة أسبوع أفكر فيها.. وما المانع؟ سأدخر خلال سنة ما أجمعه في ثلاث سنوات أو أكثر، بالإضافة إلى أن الحياة هناك أكثر جمالًا حسبما وصف لي أصدقائي، لا قيود أو عراقيل، فكل شيءٍ مباحٌ وكل شيءٍ متاحٌ طالما لا أتدخل فيما لا يعنيني.

سافرْتُ إلى القاهرة لتجهيز أوراقي وسعيت لإتمام إجراءات السفر، عندما ذهبت إلى مكتب تصاريح العمل فوجئت بمنعي؛ لأن بياناتي في البطاقة ذُكر فيها عملي السابق في القوات البحرية، فكان عليَّ الحصول على تصريح منهم بالسفر ولكنهم رفضوا، وبالإضافة إلى الرفض اضطررت إلى التوقيع على إقرار بعدم السفر وإلا تعرضت للمساءلة القانونية والجنائية.. يومها أظلمت الدنيا في وجهي ورأيت كل ما حولي بِلَوْنٍ أسود، ألا يكفي أنني لم أستطِع ادخار ما يكفي من راتبهم؟ هل أقف مستقبلي لأجلهم حتى ولو لعدة سنوات حتى يصرَّح لي بالسفر كما أريد؟ لا أعرف ماذا أفعل.. لِمَ هذا الظلم؟ أريد السفر للعمل.. لِمَ يحجرون على أحلامي؟

عندما وصلْتُ إلى القرية لم أذهب إلى البيت وفَضَّلْتُ الذهاب إلى القهوة لأُنَفِّسَ ما يجثم على صدري ويكتم أنفاسي، وجدت هناك جاري «عبد الصمد»، وهو ممن سافروا إلى إسرائيل لفتراتٍ طويلة، متزوجٌ هناك أيضًا ولديه صبيٌّ في العاشرة وفتاة أكبر في الخامسة عشرة، أخذتهما أمهما واستصدرت أمرًا قضائيًّا ضده بالترحيل عندما حاول إقناعها بأن تأتي للإقامة معه في مصر وأن تربي الولد والبنت على الإسلام مثله، ينكر هذا في العلن ولكنه أخبرني أنه أجرى صفقةً خاسرة عندما سافر إلى هناك وتزوج معتقدًا أنه هكذا سيؤمن حياته هناك، فها هو قد أنجب ولدًا وبنتًا يتربيا كيهوديَّيْن بعيدًا عنه، مُكتفٍ الآن بزوجته الأولى وهي مصرية أنجب منها أربعة: شاب في الخامسة والعشرين والآخر في الثالثة والعشرين، يهتمان بالأرض التي اشتراها بنقود سفره، وفتاتان، الكبيرة تدرس في كلية الألسن، في العشرين، والصغرى في كلية الآثار، تبلغ الثامنة عشرة.. عندما أخبرته

ما حدث معي حل المشكلة بكل بساطة وأخبرني: «لِمَ لا تغير بيانات البطاقة يا ذكي إلى موظف بالمعاش؟ وقتها لا دخل لأي شخص بما تفعل ولن تحتاج إلى إذن من جهة عملك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم الأمر بنجاح وأخيرًا استطعت الحصول على تأشيرة سياحة لمدة أسبوعين، مَرَّت إجراءات السفر بسلام وسافرت مع مجموعة من جيراني في قرية «نوسا الغيط» عن طريق البر إلى الأردن، ومن الأردن سافرنا برًّا إلى إيلات، وهنا بدأ التعقيد.. شعرت بالندم على سفري بسبب المعاملة الجافة والصعبة منهم لنا نحن المصريين، لم يخبرني أي ممن سافر عن هذه الإجراءات الطويلة على مَنْفَذِ الدخول..

تحقيق وتدقيق وتفتيش لحقائبي ولي شخصيًّا تفتيشًا ذاتيًّا، وأسئلة واستجوابات لساعات سُئلت فيها عن قريتي وما فيها، وعن عائلتي فأخبرتهم أن لي شقيقًا واحدًا (عزرا) يمتلك قطعه أرض اشتراها بعد أن سافر لفترة إلى عمان، أكبر مني بخمس سنوات، متزوجٌ ولديه أربعة أولاد، ولديَّ شقيقتان خريجتا المعهد الفني التجاري (خمس سنوات)، متزوجتان وتعيشان في دبي، حيث يعمل زوج كل واحدةٍ محاسبًا في إحدى شركات البترول الإماراتية، ولدى كل واحدة منهن ولدا وفتاة، والداي متوفيان منذ زمن، متزوجٌ وليس لديَّ أولاد.

عندما أخبرتهم عن عملي السابق اهتموا بمعرفة تفاصيل عملي ولماذا تركته وماذا فعلت بعد ذلك، فأخبرتهم بكل ما يريدون، لم أكن أعلم أن الجهات الأمنية على المنافذ تخطر الموساد ببيانات العابرين، خاصة إذا كانوا مصريين، وبالذات مَن كان يعمل لدى جهاتٍ حكوميةٍ مثل القوات المسلحة أو البحرية مِثْلي، ولم ألاحظ أنهم يراقبونني ويتتبعون خطواتي.

كل ما أثارني وأسعدني أنني أخيرًا دخلت إلى إيلات، بلد المال والجمال، كما يخبرني أصدقائي، قررت البحث عن العمل أولًا ثم التجول فيها والتعرف على معالمها فيما بعد، أقمت مع أصدقائي في شقة مؤجرة، كنا خمسة في حجرتين، اثنان في كل حجرة وأنا أبيت في الصالة، لم أعترض لأنهم تكفلوا بإقامتي حتى أجد عملًا، ولكن لحظي العاثر انتهت فترة التأشيرة ومر الأسبوعان سريعًا وكأنهما يوم وليلة، لتبدأ المطاردة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت كلما ذهبت إلى مكان أجد الشرطة في انتظاري فأهرب كي لا يلمحني أحدهم ويلقي القبض عليَّ وأُرَحَّل إلى مصر بِخُفَّيِّ حُنَيْن، كنت كما فأرٍ هاربٍ من قِطٍّ شرس، أو جزارٍ ممسكٍ بقطعة عَظْمٍ يلهث خلفه كلب حراسةٍ جائع، لم أشك في الأمر للَّحظةَ، على الرغم من استغرابٍ أصدقائي الأمر.

لقد ظلوا لشهور من دون الحصول على تصاريح إقامة جديدة ولم تطاردهم الشرطة أو تبحث عنهم، كانوا ينعتونني بـ«المنحوس»، لم أعتقد أن عملي السابق في القوات البحرية هو السبب، لم أربط بين الاستجوابات والأسئلة حول طبيعة عملي بكل هذه العراقيل التي تظهر أمامي.

حتى ظهر «أبو يوسف»، الذي كلفني بطلاء فيلته، هو شخص ثري إلى أقصى حد، لدرجة أنه استطاع منع الشرطة من ملاحقتي وأصبحت في حمايته، بعد أن كنت قد فقدت الأمل وتعبت، وكنت

أرى كل ليلة كابوسًا تطاردني فيه الشرطة، ثم مشهد ترحيلي إلى مصر وشماتة الأقرباء والجيران فيَّ لفشلي وعودتي بهذا المنظر، طلبت منه أن يجد لي زوجةً إسرائيليةً ولكنني أريدها هي وفقط ولا أريد منها أولادًا، فلا أريد مشاكل مستقبلًا بسبب الأطفال ليضيع مستقبلي معهم.

بعد ذلك الطلب بدأ «أبو يوسف» يعرِّفني بنفسه وأنه يعمل مع الموساد، فهو مدير مكتب الموساد فرع إيلات، وأنه تعرف عليَّ بعد أن أرسلَت إليه الأجهزة الأمنية في مَنْفَذِ إيلات بياناتي؛ لذا كان يتعقبني ويتتبع خطواتي، أعتقد أنه هو أيضًا مَن أَرْسَلَ الشرطة خلفي ولكنه أنكر وقال إنه عندما أخبره رجاله بالعراقيل التي تقابلني قرر مساعدتي، فلا يجوز لأحد العاملين في القوات البحرية مثلي سابقًا أن يهان بهذه الطريقة، وعرض عليَّ فرصة العمل معه مقابل مَبالغ تكفيني لقرنٍ من الزمان، فكرت ليومين ثم وافقت على عرضه، عملي عامل أو أيًّا كان نوع العمل، لن يمكنني من الحصول على ما أريد ولا تحقيق حلمي في الحصول على حقي من الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما أبلغته موافقتي نقلني إلى مقر الموساد في بئر السبع، وهناك تعرفت على طبيعة عملي في مراقبة أنشطة إحدى قواعد الدفاع الجوي المجاورة لقريتي، وأكدوا ضرورة أن أبحث عن عملٍ داخل ميناء الإسكندرية بما يسمح لي بالحصول على معلومات أكثر ومراقبة نشاط البواخر، خاصة الحربية منها، وحصلت على أرقام تليفونات لأشخاص تابعين لهم في فرنسا واليونان وإيطاليا لإبلاغهم بما أحصل عليه، حصلت على مكافأتي مقدمًا..

مبلغ من المال وليلتان صاخبتان مع واحدة عرفني عليها «أبو يوسف»، كانت فتاةً بيضاء شديدة البياض متوسطة الطول ذات شعرٍ أصفرٍ متوهجٍ كما الشمس في منتصف اليوم، معها دخلت الجنة لأتجوَّل معها بين ملاهي إيلات وأتذوقَ المتعةَ لأول مرة، معها عرفت كيف تبدو حدائق النساء الغنَّاء، وكيف تغرق دون أن تموت، منحتني ساعة رولكس هدية قبل سفري، وزجاجة عطر فرنسي على وعْدٍ أن أطلبها هي بالذات في المرة التالية، وبالطبع وافقت على هذا الشرط، فيكفيني أنها أرتني كيف تكون الأنثى وليس تلك القابعة هناك في بيتي بالقرية، التي لا تعرف عن الأنوثة غير ارتداء ثوب شفاف للنوم، بصحبتها ذهبت في رحلة أخيرة من عالمي الرتيب إلى عالم الإثارة والحياة البراقة.

عدت إلى مصر عن طريق الأردن أيضًا، وبدأت تنفيذ تكليفاتي بهدوءٍ دون أن أحاول إثارة أي شُبُهاتٍ حولي، أقنعت الجميع، خلال هذه الفترة، أنني تعبت في فترة سفري كثيرًا حتى وجدت عملًا مؤقتًا لم يستمر أكثر من شهرين، وفي النهاية تعبت من مطاردة الشرطة لي في كل مكان، فقررت العودة على أن أبحث عن عَمَلٍ في ميناء الإسكندرية، فساعدني أحد التجار في هذا بعد أن عشَّمته بمبلغٍ محترم هو كل ما تبقى من مدخراتي المجمعة خلال الأشهر الثلاثة التي قضيتها في إسرائيل مكافأةً نظير إيجاد عمل ثابت لي بعد أن أنفقت الباقي على إعادة دهان البيت وإصلاحه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت الشهور كما لمْحِ البصر، وبدأت أقتنع أنني في أمانٍ وأمارس مهامي على خير ما يكون، حتى استيقظت فجرًا على صوت تحطيم باب المنزل الرئيسي، ثم عساكر ينتشرون داخل أرجاء الشقة بل

البيت كله، اقترب مني أحد الضباط قائلًا إنني مطلوبٌ للتحقيق، قلبوا الشقة رأسًا على عَقِب وسط صرخات زوجتي التي خرست عندما صرخ فيها أحد الضباط بالصمت وإلا سحبوها معي، نزل من الأعلى أحد العساكر يحمل حقيبة صغيرة، شعرت بالفزع..

لقد وجدوا مخبئي، كيف عرفوا أنني أخبئ أشياء داخل هذا البرميل على سطح المنزل، كنت قد ثبتُّ عمود الهوائي داخل البرميل بطبقة من الأسمنت ثم وضعت أدواتي وغطيتها بطبقة أخرى من الأسمنت مثبتة في العمود أيضًا على هيئة دائرة مثقوبة من المنتصف لها يد رافعة، عندما أتركها تغطي ما يوجد في المنتصف ليبدو الأمر لكل من ينظر في البرميل على أنه مليء بالأسمنت حتى الأعلى، عندما أمسك الضابط الحقيبة السوداء اقترب مني قائلًا: أعتقد أن بهذه لن تستطيع إنكار أيٍّ مما سنتهمك به سيد «عبد الملك»، هيا معنا، ظلت زوجتي تصرخ: إلى أين تأخذونه؟ ماذا فعل؟ أنجدوني يا ناس.. وحول المنزل تجمع الجيران دون أن يجرؤ أي منهم على الاقتراب، وهم في حالة ذهول لا يعلمون ماذا يحدث، يسألون ولا مجيب.

عندما رفضت التحدث أمام وكيل النيابة إلا في حضور مُحامٍ وكَّلوا لي هم محاميًا، فلقد تبرأ مني أخي عندما عَلِمَ بسبب القبض عليَّ وأعلن أنني مِتُّ ولن يقبل منَّ أحدٍ عزائي، وزوجتي عادت إلى بيت والديها اللذين أعلنا ندمهما على تزويج ابنتهما مني، وتمنيا شنقي كي تتحرر من قبضتي، كانت كل الأدلة ضدي بعد أن شك رجال الأمن فيَّ عندما علموا بسفري إلى إسرائيل ثم عودتي بسرعة وبدأت مراقبة سلوكي وأفعالي، جمعوا الأدلة خلال هذه الأشهر المنصرمة وأنا نائمٌ على أذني أعتقد أنني في أمانٍ بعيدًا عن يد الشرطة أو المخابرات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاولت التعلل بمرض زوجتي وأنه السبب في تأخيري عن الإبلاغ عن الأمر فلم يشفع لي، حاولت أن أثير شفقتهم معلنًا أنني خفت إبلاغهم فقد يكون الموساد مراقبًا لي ويقتلني، فقوبلت بنظرات التجاهل والسخرية، كنت أشعر أنني كما فأر حُبِسَ داخل قفصٍ حوله عشرة قطط تراقبه وتنتظر لحظة خروجه للانقضاض عليه، كنت فاقدًا الأمل في النجاة بعد وجود كل هذه الأدلة ضدي، وفاقدًا الأمل في أن يهرِّبني الموساد بطريقته بعد اعترافي بكل التفاصيل، شعرت بالذل واحتقار الذات، خاصةً أن أختيَّ أرسلتا لي رسالةً تخبرانني فيها أنهما تندمان لأن لهما أخًا مثلي وبأنهما لن تعودا إلى مصر أبدًا وإذا عادتا فلن تقيما في قرية «نوسا الغيط» بعد فضيحتي المدوية، وسألتا: هل أنت الآن سعيد بعد هروب أخيك ليلًا تاركًا القرية بعد شعوره بالذل والمهانة من جرَّاء فعلتك؟ هل حققت أحلامك بهذه الخيانة؟ هل أنتَ راضٍ بعد أن خلعت جذورنا من أصولها في القرية ورميتها بطول ذراعيك خارج إطار الأمن والاحتواء وتسببت في تشريدنا نحن وأبنائنا؟ لم أجد إجابة عن كل أسئلتهما، فأنا لم أحقق أحلامي ولست بسعيدٍ وأنتظر القضاء بشنقي، فكيف أشعر بالراحة؟!

قُضِيَ عليَّ وانتهى الأمر؛ لذا في النهاية، اضطررت إلى الاعتراف بكل التفاصيل لعلِّي أنال بعضًا من الرحمة ويُخفض الحكم ولا أشنق، لا أعرف ماذا أفعل إذا تركوني على قيد الحياة بعد أن وصمت نفسي بالعار! طلبوا مني كتابة كل اعترافاتي.. كتبتها في ثمانين ورقة من الورق الكبير ضُمَّت إلى ملف التحقيق، ومن تحقيقٍ إلى تحقيقٍ ومن استجوابٍ لآخَر حتى وصلْتُ في آخر المطاف، إلى

المحكمة، ولم يكن هناك بديل، فلا سبيل للإنكار، اعترفتَ أمام هيئة المحكمة بكل شيءٍ واعترفتَ بالتجسس مقابل تقاضي مَبالغ ومِنَحٍ من الموساد، انتهت الجلسات وحانت لحظة النطق بالحكم..

أفقت من شرودي على صوت الحاجب..

محكمة..

«بعد الاطلاع على الأوراق وسماع التقرير الذي تلاه السيد النائب العام والمرافعة وبعد المداولة، وحيث إن وقائع الدعوى والمستندات وما قدمته النيابة من أدلة وبراهين تثبت قيام المتهم بالتعاون مع جهات أجنبية والاتصال بجهاز مخابرات دولة أجنبية بهدف الإضرار بمصالح الدولة العليا.. لهذه الأسباب حكمَت المحكمة حضوريًا على المتهم «عبد الملك عبد المنعم» بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا بالأشغال الشاقة المؤبدة.»

ليصرخ حاجب المحكمة: رُفعت الجلسة.

رُفعت الجلسة وسقط قلبي، تُرى كيف سأعيش خمسة عشر عامًا مشنوقًا بحبل الخيانة؟! كيف سأتحمل نظرات الاحتقار ومشاعر البُغض من كل مَن يحيط بي، رُفِعَتِ الجلسة وسقطت في بحر كوابيس رعبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-شريفة-

تلفَّتُّ حولي في اشمئزاز، كيف أوضع في مثل ذلك الموقف؟ صحيح أعلم أن لكل مُنْحَنَى صاعِدٍ اتجاهًا متجهًا للأسفل لكنني لم أتوقع أن أصل إليه سريعًا، لا زالت لديَّ أحلام أحققها وسنوات اقضيها وسط هيلماني العالي، كان ذلك المحقق يثير حنقي أكثر وأكثر، ذلك الغبي ظن أنه سيستطيع سجني مع أولادي، لا يدري مَن هي..

«شريفة هانم الباز»

لا يعلم أنني لا زلت أملك من المعارف والعلاقات التي مكنتني من مساعدة أبنائي في السفر مستغلة عدم إدراج أسمائهم في قوائم الممنوعين من السفر، بعد توكيل أحد المحامين ببيع كل ما نملك بطريقة سرية، لقد اعترف صبري بكل شيء منذ اللحظة الأولى فأعصابه كانت أخف من أن تتحمل كل هذا الضغط، وعقابًا له تركته لهم كبش فداء واستطعت الهرب من داخل عربة الترحيلات أثناء نقلي إلى السجن..

وها أنا سأنضم إلى أبنائي بعد ساعات بسيطة لأستمتع بما جمعته خلال تلك السنوات الطويلة، وربما أوفق أوضاعي وأعود ذات يوم..

ما المانع؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-سهام-

«استيقظي أيتها الكسولة، صحف اليوم كلها تتحدث عن هروب خالتك المصون»

كنت قد نمت منذ ساعة لأريح جسدي قليلًا، لأستيقظ فزعه على اسم ابن عمي ينير شاشة الهاتف، أجبته وأنا لا زلت غارقةً في النوم، وبعد ما سمعت صوته الصارخ بهذا الخبر، اعتدلت سريعًا وجلست في منتصف السرير في محاولةٍ لاستيعاب حديثة، كررْتُ الجملة مرةً ثانيةً بعقلٍ مُشَوَّشٍ وانتباهٍ ضائع، «أية خالة تقصد؟!»؛ سألته بريبة، ثم تبعته بسؤال أكثر سخافة، «تقصد خالتي شريفة الباز؟!».

ضحك بطريقة يستخف بها مما أقوله مجيبًا، «وهل لديكِ غيرها؟!»، لقد اتصل ابن عمي العزيز العاشرة مساءً ليخبرني أن خالتي «شريفة» متهمةٌ في قضيةٍ كبرى مع زوجها، اتُّهِمَت بالتخابر واستغلال النفوذ وقضايا أخرى كثيرة، التهم مثبتة بالأدلة الدامغة، لم أستطع التحكم في أعصابي، أغلقت الهاتف غير مصدقةٍ لكل هذا، ليتني لم أنم مبكرًا، دومًا تنتابني الكوابيس عندما أفعل، نزلت من على سريري لكن شعرت برأسي يدور تمسكت بحافة السرير وجلست على الأرض لا أصدق ما أسمع.

وضعت رأسي بين يدي، يا الله كيف هذا؟! كنت أظنها امرأةً مكافحةً وكثيرًا ما سألْت والدتي «لمَ لا تعيدين الود معها لتعود المياه إلى مجاريها؟!»، لكنها كانت تتهرب مني، متعللةً بأن بينهما اختلافاتٍ كثيرةٍ في الشخصية ستجلب مشاكل درؤها بعلاقاتٍ ضعيفةٍ أفضل، كنت أستغرب حديثها؛ لم أظن يومًا أن الأمر يعدو فجوة بسب اختلاف المستوى الاجتماعي بيننا، لذا كنت أحترم مشاعر أمي وأصمت.

يا الله، هل ستكون خالتي بطلة إحدى قصصي، يا للهول لا أستطيع تخيل ذلك، ستدمرني تلك المرأة قبل أن أبدأ، حاولت مجادلة «أحمد» بأن الأمر مجرد تشابه في الأسماء أو اللقب، لكنه صدمني بأنها هربت أثناء التحقيق معها إلى لندن بعد أن سَوَّت أمورها في القاهرة ورغم القضايا المتداولة ضدها.

اندهش أنني لا أعلم كل هذا لقد ظن اهتمامي بقضايا التجسس نابع من هذه القضية، لم أنطق بحرف فودعني بعد أن أوصاني بالاهتمام بنفسي.

يا الله عليَّ توخي الحذر الفترة القادمة رغم أنه لا يمنع القدر، ربما يكون من حسن حظي أن علاقتي مقطوعة بها ولكن لا مانع من الحذر، يا تُرى ماذا تخبئ لي الأيام القادمة؟!

فقط ضِعْ في الحياة.. ولا تستمع لنصائحي.

نصيحة ضياع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سهام شوکت

۲۰۱۷

شكر خاص

الكاتب الصحفي/ إبراهيم فايد.

المراجعان:

الأستاذ/ محمود سيد، الكاتبة/ سارة كرم

المحاميان:

الأستاذ/ محمد عيد، والأستاذ/ رفعت العاصي (رحمه الله)

الكاتبان:

الأستاذ/ خالد الجزار، الأستاذ/ عبد الفتاح الهلالي.

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

البدايات
شريفة
أرميلات
مستقبل مشرق -شريفة-
-سهام-
-عصام الشناوي-
رحلات داخل الورق
-شريفة-
-سمير عثمان-
بداية الحلم -شريفة-
-سهام-
سمير الإسكندراني
علاقات مفيدة -سهام-
-شريفة-
مولتي تشاوولد
إدبار الزمن -شريفة-
-سهام-
-آنا مونتيس-
لحظة صدق -سهام-
-شريفة-
-شريفة-
-سهام-
شكر خاص